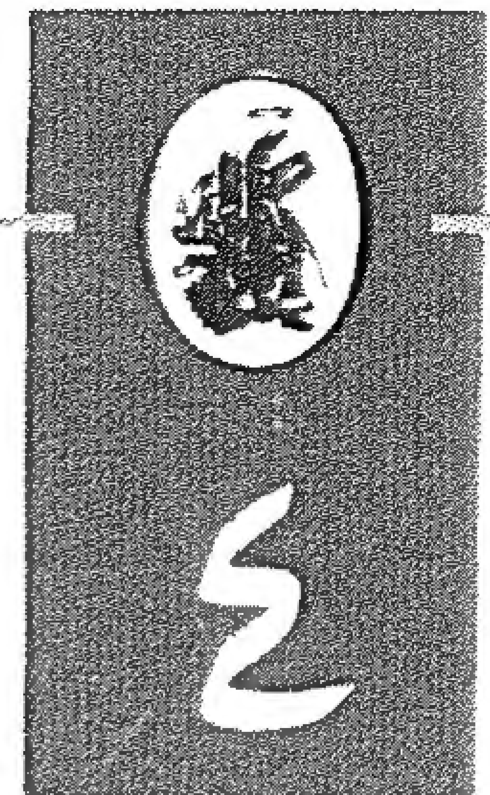
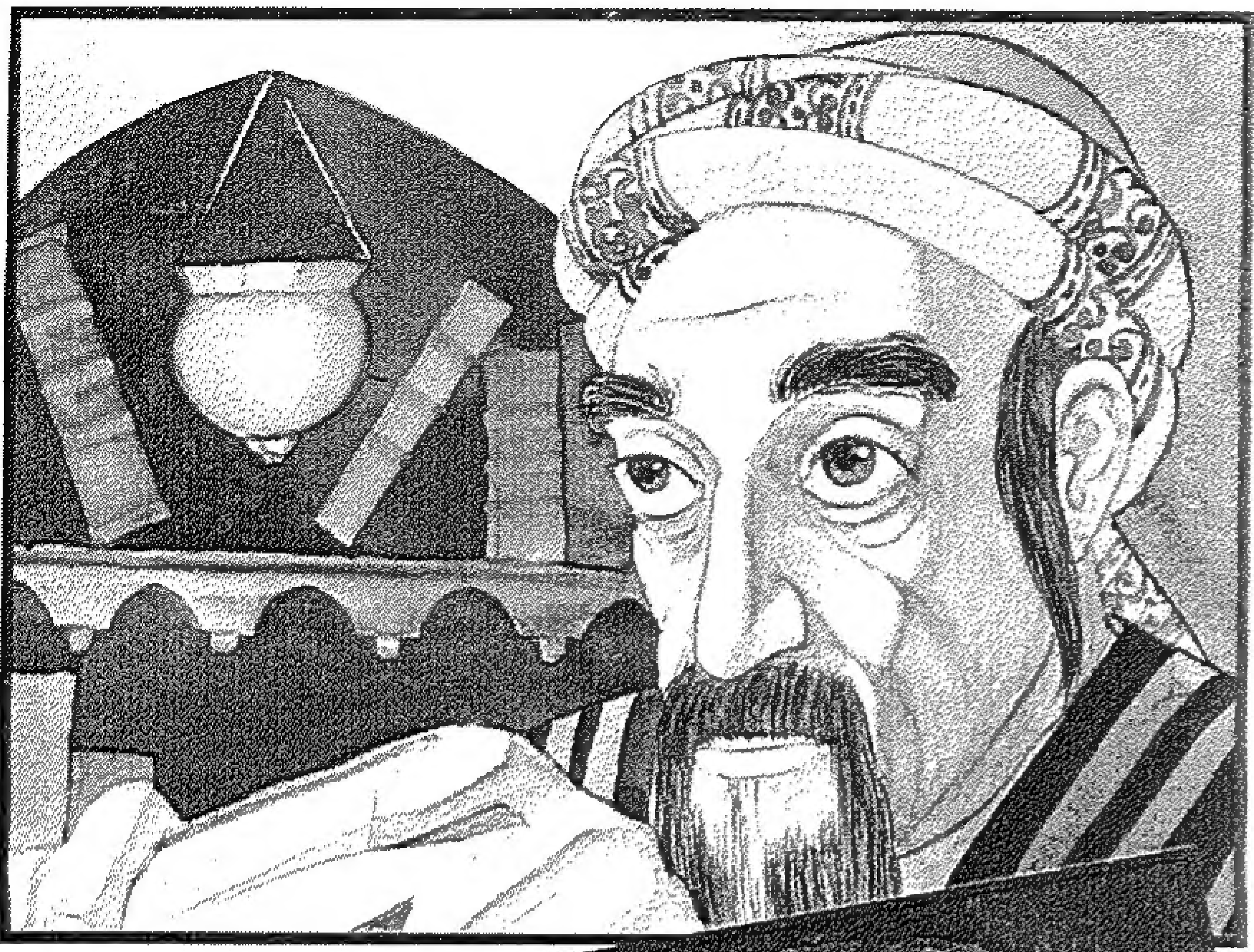


علماء العرب



٤



الجاحظ
زرياب
الكواكبي
ياقوت الحموي



إعداد : راجي عنايت

رسوم : هبة عنايت





علماء العرب

للفتيان والفتيات

الجاحظ ● زريـــاب ● الكواكبي ● ياقوت الحموي

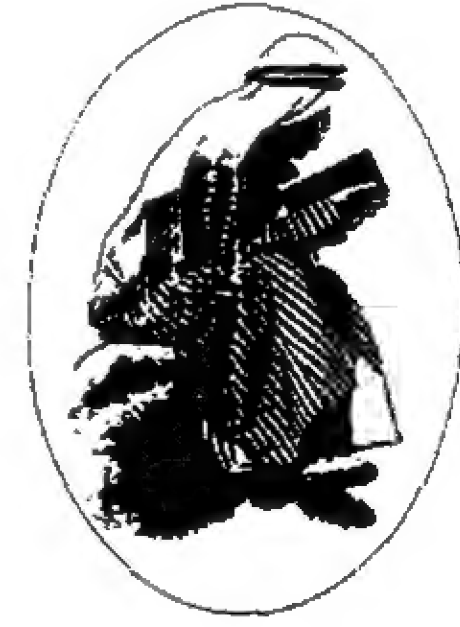
الطبعة الأولى

1995

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

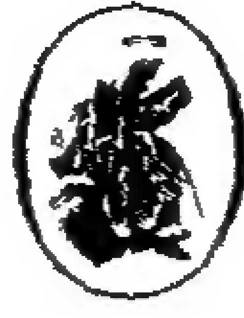
المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، شارع برلين
بناية برج الكارلتون
ت: 807900/1 ص.ب.: 5460-11
تلكس: LE/DIRKAY 40067 برقيًا: موكيالي



دار الفارس للنشر والتوزيع

عمان، الشميساني، شارع عبد الحميد شومان
عمارة بترا سنتر، فوق (مطعم بيتزاهت)
ت: 605432 فاكس: 685501
ص.ب.: 9157 عمان 11191



٤

الجاحظ
زريـــاب
الكواكبي
ياقوت الحموي

إعـــداد : راجــي عـنـايـت
رســوم : هـبـة عـنـايـت

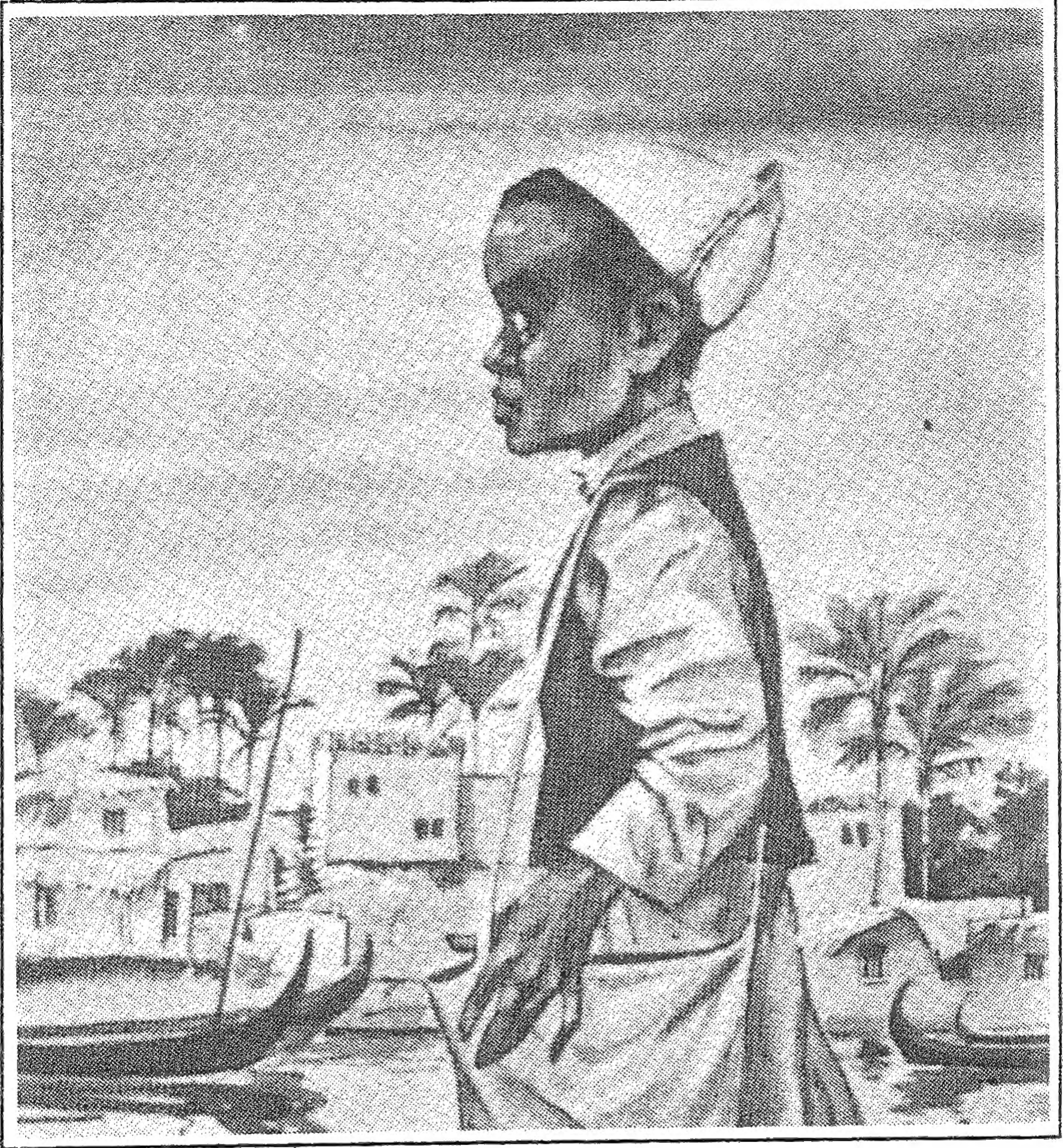


الجَاحِظ

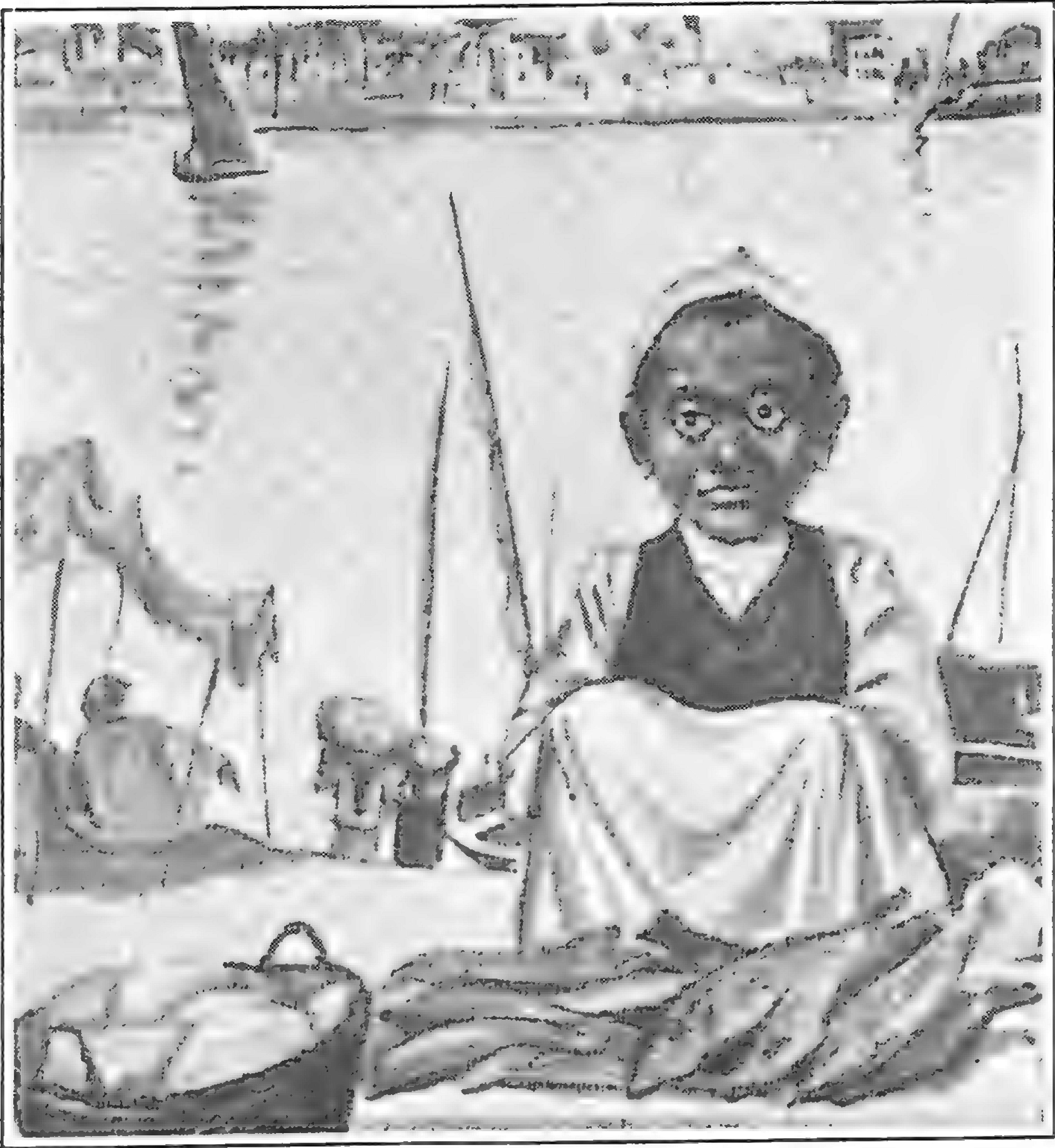
العالم، الفيلسوف، الأديب



هُوَ عمرو
ابن
بحر
الجاحظ



ولد الجاحظُ في مدينةِ البَصرةِ بالعراق، وتوفي والدُه وهو صغير، فنشأَ في كنفِ أسرتِهِ الفقيرة، ولما أصبحَ فِي سنِّ الدراسة، أُرسلَ إلى «الكُتّاب»، يتعلمُ القراءَةَ والكتابة.



وكان يُضطرُّ بعدَ انتهاءِ الدراسة، إلى كسبِ قُوتِه، ببيعِ السمكِ والخبزِ قرب أحدِ جَداولِ أنهارِ البصرة، ويعودُ إلى أمّه بالدراهمِ القليلةِ التي يكسبُها من عملِه.



وفي بعضِ الأيام - وكانت تستهويه حلقاتُ البحثِ العلمي والأدبيّ التي تدورُ في جوامعِ البصرةِ وضواحيها - تغيَّبَ عن عملِه، وفقدَ تلك الدراهم، مما بعثَ الضيقَ في نفسِ أُمّهِ.



وفي يومٍ من تلك الأيام، عاد إلى أُمّه بلا دراهمَ يطلُبُ الطعام. فأحضرت له طبقاً عليه غطاءٌ من القُماشِ، وما أن رفعَ الغطاء، حتى وجدَ بالطبقِ كُرّاساً. سألَها: ما هذا؟. قالت: هذا الذي تجِيءُ به!.



خرجَ الفتى من بيتِهِ مغموماً، يتنازعُه حبُّ العلمِ من جهة، وحبُّه لأمّه ورغبتُه في إرضائِها من جهةٍ أخرى. ظلَّ يطوفُ شوارعَ البصرَة، حتى وصلَ إلى جامِعِها، وجلسَ فيه حزيناً.



رآه في جلستِهِ هذه، عالِمٌ فاضلٌ من أهلِ البصرةِ يدعى يونسَ بنَ عِمْرَان، وسأله عن سرّ حزنِه، فقصَّ عليه قصتَه، وعرضَ عليه ما يدورُ في نفسِه من صراعٍ أليم.



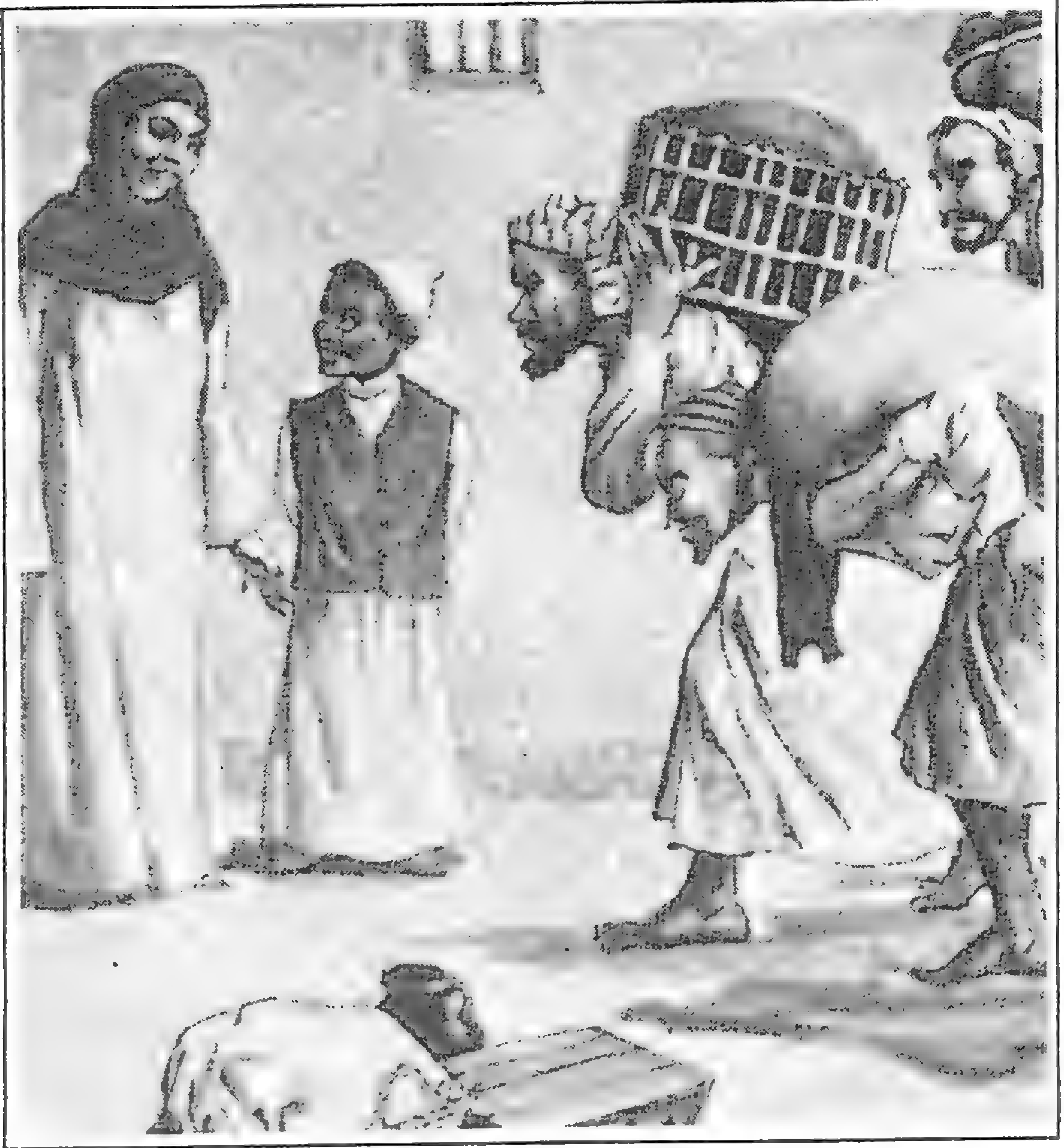
طَيَّبَ الرجلُ خاطرَه، وأخَذَه إلى دارِه، فقدمَ له أصنافاً من الطعام. أمامَ هذه الوليمةِ السخية، نسيَ الفتى نفسَه، وراحَ ينتقمُ من الجوعِ الطويلِ الذي طالما آلَمه.



وقبلَ أن ينصرفَ الجاحظ، أعطاه الرجلُ خمسين ديناراً، يدبّرُ بها أمورَ معيشتِه. كان المبلغُ ثروةً طائلةً بالنسبةِ للجاحظ، فأكثرَ من شكرِ الرجلِ الكريم، ومضى مسرعاً إلى السّوق.



أخذ الفتى يتجوّلُ في السوق، يشتري كلَّ ما يحتاجُهُ البيت، ويستأجرُ الحمّالين، ليساعدوه في نقلِ ما اشتراه إلى بيتِه. وفي الطريقِ إلى البيت، استرعى هذا الموكبُ نظرَ كلِّ الجيران.



دُهِشت الأم، وتجاوز فضولُها فرحتَها بهذا الخيرِ العميمِ الذي مضى به الحمالون إلى داخلِ الدار، فسألته: من أين لك هذا؟. قال ضاحكاً: من الكُرّاسِ الذي كان في الطّبق!.

عصره وزمانه

كانت الدولةُ العباسيةُ الأولى قد بلغَت قِمةَ نهضتِها السياسيةِ والفكريةِ والأدبية. وفي ظلِّ نفوذِها الكبير، ولد أبو عثمانَ عمرُو ابنُ بحر، الملقَّبُ بالجاحظ، ليصبحَ عَلَماً من أكبرِ أعلامِ عصرِه، ومفكّراً من أعظمِ مفكري جيلِه، وليُثريَ الفكرَ العربيّ والإسلاميّ بما يزيدُ على ثلاثمائةٍ وخمسين كتاباً في مُختلِفِ فروعِ الثقافة. ليكتبَ مبتكراً في علمِ النباتِ والحيوان، والاجتماع، والتربيةِ وعلم النفس، والجغرافيا، والطبِّ، والكيمياء، والفلك. ولينشيء مدرسةً ومذهباً في النقدِ والأدب، وليُرسيَ دعائمَ البلاغةِ العربية.

ولدَ الجاحظُ في عهدِ الخليفةِ المنصورِ العباسي، وقد استقرَّت دعائمُ الدولةِ الإسلامية، وتأسست بغدادُ فارتفعت فيها القُصور. وعاش طفولتَه في أيامِ الخليفةِ المهدي، الذي مدَّ نفوذَ الدولةِ العباسية إلى كلِّ مكان. وبلغَ مبلغَ الرجالِ في خلافةِ هارونَ الرشيد، التي اتّسعت خلالَها رُقعةُ الثقافةِ العربيةِ بانتقالِ الآثارِ الفكريةِ العالميةِ إلى اللغةِ العربية. وأمضى سنواتِ نُضْجِهِ وخصوبتِه في عصرِ المأمون والمعتصمِ والواثقِ والمتوكل، يتابعُ قُوَّةَ الخلافة،

وعظمةَ الخلفاء، ومجدَ الدولة. . ثم يُعانِي ضعفَها وضياعَ هيبتِها وفسادَ شؤونها. عاشَ ليرى نفوذَ الفُرسِ يكبَرُ ويقوَى، حتى كادوا أن ينفردوا بالسلطةِ والحكم. . وعاشَ ليرى ضَيَاعَ نفوذِهم، وانتصارَ الأتراكِ عليهم.

كانت هذه صورةً عامةً لعصرِ الجاحظِ وزمانِه، ولا بد لنا حتى نفهمَ أعمالَه وتطوراتِ حياتِه، أن نُلقيَ نظرةً على الحياةِ الاجتماعيةِ والعقليةِ والأدبيةِ في عصرِه.

رغمَ الازدهارِ السياسيّ، والقوةِ العسكرية، والانفتاح الثقافي، كان وجهُ الحياةِ الاجتماعيةِ في ذلك العصرِ حالِكاً متقلّباً لا يستقرّ على حالٍ. فقد كانت الأرضُ توهَبُ للمقرّبين من الأمراءِ والوزراء، وكان هَمُّهم جمعَ المالِ من تلك الأرضِ دونَ اعتبارٍ لأحوال البشرِ الذين يَعيشون عليها. وانتشرت الرِّشوةُ بين طَبقاتِ الموظفين صغاراً وكباراً. . وتنافسَ الأغنياءُ في الترفِ وتشييدِ القصور. وكان الفقرُ والشّقاءُ من نصيبِ أغلبِ الشعب. فانتشرَ التسولُ بطريقةٍ تَلفِتُ نظرَ كلِّ زائرٍ للبلاد.

وانتشرت في البلادِ تجارةُ الرقيق، فكان في بغدادَ شارعٌ يسمّى «شارعَ دارِ الرقيق»، وكان العبيدُ يباعون في ذلك الشارعِ من مختلفِ الأجناسِ والأرجاء. وفقدَ الناسُ اطمئنانَهم على أرزاقِهم، وعلى وفَاءِ الدولةِ بالتزاماتِها حيالَهم. وفي هذا يقولُ الجاحظُ، إن أصحابَ الجِمَالِ الذين كانوا يُقدِّمون خِدْماتِهم إلى السلطان، لم يكن من السهلِ عليهم أن يستخلصوا منه حقوقَهم، إذا لم يلجأُوا إلى الحِيلة.

كانت الدولةُ في ذلك الحين تتكونُ من عدةِ عناصر: العنصرِ العربي، والعنصرِ الفارسي، والعنصرِ التركي.. هذا بالإضافةِ إلى الرومِ (أهلِ اليونان) والزنوج. وقد جرَّ تعددُ العناصرِ إلى انحطاطِ الأخلاق. وأدت الأموالُ المتدفقة إلى خزائنِ الأغنياءِ والحكّام، إلى الترفِ واللهوِ وشراءِ العبيدِ والميلِ إلى الفسق. غير أن هذا جميعَه، بعثَ في نفسِ أفاضلِ الناس، ثورةً على الفسادِ وحضّاً على الزهد، فظهرت الفِرَقُ الدينية، وتعدَّدت المذاهبُ الإسلامية، وكان أشهرَها «المعتزلة»، التي دَعَت إلى حريةِ العقل.

ومع هذا، فقد كانت البيئةُ الثقافيةُ في عصرِ الجاحظ من أقوى عناصرِ نهضةِ الدولةِ العباسية. أخذَ الخلفاءُ يشجّعون الحركةَ العلمية، ويُكْرمون الأدباء، مما جعلَ العلمَ والأدب، طريقَ المناصبِ العاليةِ والنفوذِ والثراء. فبالإضافةِ إلى الثقافةِ الإسلاميةِ العربيةِ الأصيلة، انتشرت الثقافةُ الفارسيةُ على أيدي الوزراءِ من الفرس، ونُقِلَت إلى العربية ثمارُ الثقافةِ اليونانيةِ والهندية. فامتزجت الثقافاتُ واتّصلت، وازدهرت الحركةُ العلميةُ والأدبية، وأصبحَ التعليمُ حِرفةً محترمة، وأصبحَ الأدبُ طَريقاً إلى المجد.

طفولتُه وصِباه

في هذا العصرِ ولدَ الجاحظ، وبالتحديدِ في شباط / (فبراير) عام ٧٦٧ م (المحرم ١٥٠ هـ)، بمدينةِ البصرة.

كانت البصرةُ في ذلك الوقتِ من أكبرِ مراكزِ الحياةِ العقليةِ في الإسلام، وميناءَ العراقِ الأكبر، ومن أعظمِ الموانىءِ البحريةِ في العالمِ الإسلاميِّ القديم، تَرِدُ إليها التجارةُ مِن كلِّ مكان، وتنتقلُ

تجارةُ البلادِ العربيةِ في سفنِهَا الكبيرةِ إلى جميعِ موانىءِ المحيطِ الهندي حتى الصين. وخلالَ حياةِ الجاحظ، عَظُمَت حضارةُ البصرة، وسادَها الرخاءُ والرَّفاهيةَ، وكان سكانُها ـ شأنَ سكانِ الموانيء ـ خليطاً من العناصرِ والأجناس.

في البصرة.. الميناءِ العربيِّ الكبير، ولدَ الجاحظ، وتعلّم، وعلّم، وكتبَ وقرأَ وابتكر، أغلبَ سنواتِ عمرِه الطويل.

قبل أن يتجاوزَ مرحلةَ الطفولةِ المبكّرة، توفيّ والدُه وكان على أسرةِ والدتِه الفقيرةِ أن تتكفّلَ بتربيتِه والإنفاقِ عليه. تيسّر له في البدايةِ أن يذهبَ إلى «كُتّاب» البصرة، يتعلمُ القراءةَ والكتابة، شأنُه شأنُ غيرِه من الصغار.

يدركُ الجاحظُ بذكائِه الفِطري، الظروفَ الصعبةَ التي تجتازُها أسرتُه، ويعرفُ أن وضعَه يختلفُ عن وضعِ الكثيرِ من الأطفال الذين يشاركونه الدّرس، فيندفعُ إلى استيعابِ دروسِه، يقرأُ ويكتب، تساعِدُه موهبةٌ أصيلةٌ وذكاءٌ فطريّ عجيب، فيتفوقُ ويكتسبُ ثقةَ معلميه، مما يتيحُ له أن يتجاوزَ مرحلةَ «الكتّاب»، وينضمَّ إلى حَلَقاتِ العلمِ في المسجدِ الجامعِ بالبَصرة.

لم يكن الجاحظُ حراً في أن يتفرغَ لتلقِي العلمِ والمعارفِ طوالَ يومِه، فقد كان عليه أن يعملَ بعد انتهاءِ دراستِه لِيكسبَ قوتَه وقوتَ أُمّه. واختارَ أن يبيعَ الخبزَ والسمكَ عند شاطىءِ نهرٍ بالبصرةِ يسمى (سِيحان). وكانت أُمُّه تخافُ أن يصرفَه عشقُه للعلمِ وحبُّه للتحصيل، عن عملِه الذي يعتمدون عليه في معيشتِهِم، فتظَلُّ تُلحُّ عليه في أن يُعطِيَ لعملِه من الوقت ما يُعطيه لتعليمِه.

يحسُّ الجاحظُ بفطرَتِه العربيةِ الأصيلة، وبين خليطِ الأجناسِ الذي تحفِلُ به البصرة، بحاجةٍ شديدةٍ إلى استيعابِ أصولِ الفصَاحَةِ العربيةِ من منابِعها، وقبل أن تدخلَ عليها التّحريفات، فيتجهُ إلى «المِرْبَد». و«المربد»، ضاحيةٌ من ضواحِي البصرةِ في الجهةِ الغربيةِ منها على بُعدِ ثلاثةِ أميال. كانت في بدايةِ الأمر سُوقاً عامةً للإبلِ والتجارة، ثم أصبحت مع مرورِ الزمنِ سُوقاً أدبيةً كبرى، كسوقِ «عُكاظ» في الجاهلية. وكانت المربدُ تقع في طريق القادمِ من بلادِ العرب إلى البصرة، وبعد أن تحوّلت إلى لقاءٍ أدبي، كان شبابُ البصرةِ يخرجون إليها للقاءِ الأعرابِ والتحدثِ إليهم، سعياً وراءَ اللغةِ العربيةِ الصافيةِ الرائقة، قبلَ أن تدخلَها صَنعةُ المدنِ والأمصارِ الأجنبية، وفي المِربد، كان شبابُ البصرةِ يستمعون إلى قصائدِ الشعرِ التي يتبادلُها شعراءُ البادية، ويناقشون شؤونَ الأدبِ والبلاغة. فيتنقلون بين حَلَقَاتِ الشعر، هذه حلقةُ «جَرير»، وتلك حلْقةُ «الفَرَزْدَق». في هذه المدرسةِ الواسعةِ الأصيلة، تلقّى الجاحظُ دروسَه اللغويةَ والأدبيةَ الأولى، واستمعَ إلى الرُّواة، يَحكون أحداثَ الفتحِ الإسلامي، وتاريخَ قادةِ العرب، وسيرةَ الزّهادِ ورجالِ الدين.

هكذا عاش الجاحظُ في عهدِ خلافةِ المنصورِ وجانبٍ من خلافةِ المهدي، مُنْكبّاً على العلم، حتى بلغَ مرحلةَ الشباب.

شبابُ الجاحظ

في مرحلةِ الشباب، نضجَ وعيُ الجاحظ، فراحَ يختارُ أساتذتَه من أئمةِ اللغةِ والشعرِ وعلومِ العرب، ويشاركُ في نَدَوَاتِ

الشعر ومجالسِ الأُدباء. فاتَّسعت معارِفُه النقدية، وأصبحَ يعرِفُ قيمةَ من يَدرُسُ عليهم، جوانبَ تفوّقهِم وجوانبَ قصورِهم، وفي هذا يقول «طلبت علمَ الشعرِ عند الأصمعيّ فوجدته لا يُحْسنُ إلاَّ غريبَه، فرجَعَت إلى الأخفشِ فوجدته لا يتقنُ إلا إعرابَه، فعطفت على أبي عبيدةَ فوجدته لا ينقلُ إلاَّ ما اتّصَل بالأخبارِ وتعلَّقَ بالأيامِ والأنساب، فلم أظفرْ بما أردت إلا عندَ أدباءِ الكُتّاب كالحسنِ بنِ وَهْب، ومحمدِ بنِ عبدِ الملك الزّيات».

وكانت محبةُ الجاحظِ للعلم مَضْرِبَ الأمثال، ومجالاً للتندّرِ بين صحبِه ورفاقِه، فيقول أحدُهم، وهو محمدُ بن سليمانَ الجَوهري، إنه كان يرافقُ الجاحظَ مرافقةً دائماً مستمتعاً بجدِّه وهزْلِه، ضمنَ جماعةٍ من الأصدقاء. خرجوا يوماً للنزهة، وبينما هم عندَ بابِ جامعِ البصرة، مرَّت بهم امرأةٌ تحمِلُ أوراقاً مُهلهلة، فعرضَت عليهم شراءَها، غير أنهم لم يجدوا فيها ما يستحقُّ الشراء. تحرك ركبُ الصَّحب، فتخلفَ عنهم الجاحظ. وعندما بَحثوا عنه، وجدوه يشترِي منها هذه الأوراقَ ويمضي بها إلى بيتِه. فلما عادَ إليهم أخذوا يسْخَرُون منه ومن تصرّفَاتِه، فقال: «أنتم حَمقى، والله إنَّ فيها ما لا يوجدُ إلا فيها، ولكنَّكم جُهّال، لا تعرفون النفيسَ من الخَسيس».

ويقول أحدُ معاصريه: «لم أر قطُّ ولا سمعت من أحبَّ الكتبَ والعلومَ أكثرَ من الجاحظ». فقد كان يقرأُ كلَّ ما يقعُ في يدِه من كتب، أياً كان موضوعُها، وكان من عشقِه للقراءة، يدفعُ مبلغاً من المالِ لأصحابِ المكتبات، حتى يَسمحوا له بالبقاءِ دَاخلَ

مكتباتِهم عند إغلاقِ أبوابِها، حتى يقرأ ما بها طَوَال الليل.

لم يكن فقرُ الجاحظِ عقبَةً في سبيلِ سعيه إلى القراءة، فتراكمت معارفُه، وتفتَّحَ عقلُه، وبدأَ يؤلِّفُ الكتب. غير أن الناسَ كانوا ينصرفون عنها، حِرصاً على قراءةِ كتبِ المعروفين من الكتّابِ والأدباء، فما حاجتُهم إلى قراءةِ كتب ذلك الناشئِ الملقب بالجاحظ. كيف يصلُ إذاً إلى الناس؟. هنا، يلجأُ الجاحظُ إلى حيلةٍ ذكية، وإنْ كانت غريبة. كان يؤلف الكتبَ ويَنْسِبُها إلى غيرِهِ من المشهورين، مثلِ ابنِ المقفّع. فيعجبُ الناسُ بها، ويُقْبِلون على شرائِها. ويرتضي الجاحظُ هذا الحلَّ مُكْرَهاً ليواجهَ مطالبَ معيشتِه، ويجدَ قوتَه وقوتَ من يَعُولُهم.

أيامَ خِلاَفَةِ هارُونَ الرشيد، كان الجاحظُ قد بلغَ مرحلةَ الرجال، وأفادَ من اتساعِ الثقافةِ العربيةِ في ذلك الوقت، وقرأَ ترجمةَ أهمِّ المراجعِ الأجنبية باللغةِ العربية، فتعددت كتبُه ورسائلُه.

الجاحظُ في بغداد

بلغَ الجاحظُ في ذلك الوقتِ الثّلاثين من عمرِه، وتصدَّر بحكمِ مقامِه الأدبي والعلمي، حَلَقَاتِ العلمِ والأدب. يتجمعُ حولَه التلاميذُ يفِيدُون من عِلمِه. وذاع صيتُهُ إلى الكوفةِ وبغداد، وباقي عواصمِ العالَمِ الإسلامي.

في هذه الفترة، ودّعَ الجاحظُ حياةَ الفقرِ والبؤسِ، وأصبحَ يَمْتَلِكُ بفضلِ عِلمِهِ ومكانتِه الأدبية، أرضاً باسمِه، ومالاً وفيراً، وبيتاً جميلاً، يقال إنه اختارَ لتركيبِ أبوابِه أمهرَ النجّارين. وهَبَطت

عليه المِنَحُ والهدايا من الخلفاءِ والوزراءِ وأصحابِ السلطان.

وفي عهدِ الخليفةِ المأمون ٨١٣ م (١٩٨ هـ)، بلغَ الجاحظُ قِمةَ المجد، وأصبحَ من مشاهيرِ عصرِه، وألَّف الكثيرَ من الكتب، وأصبحَ له العديدُ من التلاميذِ النجباءِ الأدبَاءِ والشعراءِ والعلماء. وكان يسافرُ بين الحينِ والآخر إلى بغدادِ، للتدريسِ ولقاءِ الزّملاء. وفي عام ٨١٩ م (٢٠٤ هـ)، استقرَّ الجاحظُ في بغدادَ ليكونَ قريباً من مركزِ النهضةِ الحضاريةِ التي تحققت في عهدِ المأمون. فقد كان الخليفةُ المأمون يُحبُّ العلمَ ويكرمُ الأدباء، يفهمُ في أمورِ الثّقافة، ويُشجِّعُ المترجمين على نقلِ الثقافةِ الفارسيةِ واليونانيةِ والرومانيةِ والهنديةِ إلى اللغةِ العربية. فتدافعَ على بغداد، جَمعٌ حاشدٌ من العلماءِ والأدباء، وأصبحت مَقْصِدَ أهلِ الثقافةِ من جميعِ الأنحاء.

ما إنْ حلَّ الجاحظُ ببغدادَ حتى أصبحت له مكانتُه بها. يُعلِّمُ ويحاضرُ ويناقشُ ويَقصِدُه العلماءُ والحكماء. وكان في نفسِ الوقتِ على صلةٍ بالخليفةِ المأمون، فلما قرأ أحدَ كتبِه، ويسمَّى كتابَ «الإمامة»، استدعاه وأثنى عليه، وكلَّفه بتأليفِ رسالةٍ عن الدولةِ العباسية. فأنجزَ الجاحظُ تلك الرسالة على خيرِ وجه، مما ضاعفَ من إعجابِ الخليفةِ المأمونِ به.

توثَّقت الصلةُ بعد هذا بين المأمونِ والجاحظ. وذات يومٍ عرضَ عليه المأمونُ أن يتولَّى وظيفةَ «رئاسةِ ديوانِ الرسائل». كانتْ هذه الوظيفةُ أهمَّ المناصبِ الأدبيةِ في الخلافةِ الإسلامية، وكان عملُ ذلك الديوانِ هو المحورُ الذي تدورُ حولهِ السياسةُ العامةُ للخلافة. فلم يكن يتولَّى هذه الوظيفةَ غيرُ أصحابِ المواهبِ

الفريدةِ في الأدب، الذين يُحيطون بمختلفِ الثقافات، ويُجِيدُون التدبيرَ ومعالجةَ الأمورِ السياسية.

في أولِ الأمرِ كان المأمونُ يكلّفه بأعمالِ هذه الوظيفة، كلَّما تغيَّبَ مَن يَشْغَلُها في شأنٍ من شؤونِ الدولة، ثم أصدرَ أمرَه بإسنادِ المنصبِ إلى الجاحظ. وافقَ الرجلُ مُكرَهاً ومُحْرَجاً، غير أنه لم يبقَ بها سوى ثلاثةِ أيام، اعتذرَ بعدها للخليفة، فقبلَ اعتذارَه وأعفاه. لقد أدرك الجاحظُ ببصيرتِهِ النافذة أن هذا المنصبَ سيفرضُ عليه قيوداً تؤثّر في حياته العلميةِ والأدبية. وهو الذي اشتُهِرَ بحبّهِ للحرية وكراهيتِه لقيودِ الوظيفة، فقد رُوِي عنه أنه دخَلَ يوماً ديوانَ المكاتبات، وهو فرعٌ من فروعِ ديوانِ الرّسائل، فرأى جماعاتٍ من الكُتّاب، تأنَّقوا في ملابِسهم، وزيَّنوا عِماماتِهِم، وزخرفوا أرديتَهم، فقال عنهم ساخراً: «هؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزبدُ فيذهبُ جُفَاءً﴾، ظواهرُ نَظِيفة، وبواطنُ سَخيفة، فويلٌ لهم مما كَتَبت أيديهم، وويلٌ لهم مما يَكْسِبون!...».

ومن الأسبابِ التي دعت الجاحظَ إلى الاعتذارِ عن هذه الوظيفة، ما اكتشفَه من دسائسِ العاملين بالديوان، وأغلبُهم من أصلٍ فارسيّ، يَرَون أنهم أحقُّ بمثلِ ذلك المنصبِ، فآثر أن يتقيَ شرَّ دسائِسهم ومؤامراتِهِم. وقد اعترفَ أحدهم، وهو سهلُ بنُ هارونَ بقولِه: «إن بقاءَ الجاحظِ في ذلك الديوان، يعني أُفُولَ نجمِ مَنْ به مِنَ الكتاب، نتيجةً لمكانتِهِ العلمية».

يرجعُ الجاحظُ إلى البصرة، سعيداً بلقاءِ كتبهِ ورسائلِه وأوراقِه. وفي البصرة، يأتيهِ خبرُ وفاةِ المأمون، فيحزنُ عليه.

صَداقةُ الوزير

بعد وفاةِ المأمون، تولَّى الخِلافةَ المعتصمُ بنُ الرشيد عامَ ٨٣٣ م (٢١٨ هـ)، وسارَ على سياسةِ أخيه. وكان وزيرُ المعتصم، وهو محمدُ بنُ عبدِ الملكِ الزيّات، صديقاً حميماً للجاحظ. فارتفعت مكانةُ الجاحظِ إلى الأوج، وقرَّبَه ابنُ الزياتِ إلى صاحبِ الخلافةِ ورعاه، فأصبحت له مكانتُه الكبرى عندَ الخليفةِ ورجالِ الدولة. وكان الجميعُ يعجَبُ بطيبِ خِصَالِه، ولطفِ معشرِه، وطَرافةِ حديثِه، وغرابةِ نوادرِه.

وكان ابنُ الزيّاتِ أشدَّهم حبّاً للجاحظِ وإعجاباً به، فبادله الجاحظُ حبّاً بحب، وإخلاصاً بإخلاص. وسعى ابنُ الزياتِ إلى صحبةِ الجاحظ، يتحدَّث معه، ويستشيرُه في العديدِ من الأمور، ويشاركُه الطعام. في هذه الفترةِ وضعَ الجاحظُ الكثيرَ من كتبِه ورسائلِه.

بعد وفاةِ المعتصم، وتولِّي الواثق، بقيت لابنِ الزيّاتِ وزارتُه، وبقيَ للجاحظِ احترامُه، وكان عندئذٍ قد بلغَ الثمانين من عمرِه. في ذلك الوقت وضعَ الجاحظُ مرجعَه العلميَّ العظيم «كتاب الحيوان»، وأهداه لابنِ الزيات، فكافأَه عليه بخمسةِ آلافِ دينار.

وكتابُ الحيوانِ يعكسُ ثقافةَ الجاحظِ الواسعة الشاملة، ويحددُ مذهبَه العلميَّ التجريبيَّ الذي سبقَ إليه أشهرَ أصحابِ هذا المذهبِ في أوروبا. الجاحظُ في كتابِه هذا يتناول الحيوانَ ساعة ولادتِه، وزمن نشأتِه، كما يتحدث عن موطنِه، وخصائصِه، وكيفيةِ تربيتِه لصغارِه وإطعامِها. كما يراقبُ تأثرَ الحيوانِ بالحرِّ والبردِ

والشمسِ والظل، ومدى أُلفتِه للإنسان. وفي سبيلِ ذلك كان الجاحظُ يتفرغُ لتربيةِ بعضِ الأشجارِ والنباتاتِ والدواجن والحيواناتِ الأخرى، لتأتيَ آراؤه عن خبرةٍ تجريبية. في كتابِه هذا، ذكرَ الجاحظُ الكثير من الأوهامِ الشائعة وصحَّحها، وبيَّن جانبَ الصدقِ فيها، وكشفَ مواطنَ الزَّيف.

ولقد كان كتابُ الحيوان، هو التطبيقُ العمليُّ لمَا دَعَا إليه الجاحظُ من ضرورةِ الجمعِ بين التخصصِ العلميّ والثقافةِ العامة. فالجاحظُ لم يكتبْ ما كتب، إلا بعدَ دراسةٍ طويلة، وخبرةٍ واسعة، وبعدَ أن عانَى من الأبحاثِ ما عانى. فلم يُهملْ شيئاً يدخلُ في بابِ العلمِ والثقافة، ولم يأنفْ الأخذَ من صغارِ الناسِ قبل كبارِهم، مستفيداً من علمِهم مهما قلَّ شأنُهم.

كان الجاحظُ في هذه الفترةِ واسعَ الغِنى، عظيمَ النّفوذ. سألَه صديقٌ قائلاً: كيف حالُك يا أبا عثمان؟. أجاب: «سألتني عن الجملةِ فاسمعْها مني واحداً واحداً، حالي أنّ الوزيرَ يتكلمُ برأيي، وينفّذُ أمري، ويواترُ الخليفةُ الصِّلاتِ إلي (أي يمدُّه بالهِبَاتِ والهدايا). وآكلُ من لحم الطيرِ أسمنَها، وألبسُ من الثيابِ أفخرَها». ولم يكنْ الجاحظُ مبالغاً في وصفِ حالِه، بل كان ذاكراً نعمةَ ربه.

في عام ٨٤٧ م (٢٣٢ هـ) توفي الخليفةُ الواثق، فحزنَ عليه الجاحظُ حزناً شديداً. ولم يكن الجاحظُ في ذلك الحين، يُدرِكُ أن وفاةَ الواثقِ ستقفُ آثارُها عند حدِّ الحزنِ عليه، بل ستمتدُّ لما هو أشدُّ من الخطوبِ والأحداث.

المِحنَةُ العارضة

بعدَ الواثق، تولَّى الخلافةَ المتوكّلُ من أبناءِ الخليفة المعتصم. وبعدَ أشهرٍ من تولّيه الخلافة، انقلبَ على الوزيرِ ابنِ الزياتِ فقتَلَه، وأتى مكانَه بابنِ أبي دُؤادَ ليتولى منصبَ الوزارة، بعد أن كان قاضياً للقضاةِ في خلافةِ الواثق.

أحسَّ الجاحظُ بنذيرِ الخطرِ بعد وفاةِ صديقِه وزميلِه ابنِ الزيات، فتسلَّلَ هارباً إلى البصرة. وعندما قيلَ له هناك: لِمَ هربت؟ قال: خِفت أن أكونَ ثانِي اثْنين. غيرَ أن ابنَ أبي دُؤاد، الخصمَ القديمَ لابنِ الزيات، ووزيرَ الواثق، يأمرُ رجالَه بإحضارِ الجاحظِ من البصرةِ إلى بغداد، فينقلُ إليها مقيَّد الرِّجلين، مغلولَ العنقِ بسلسلةٍ من الحديد، في قميصٍ ممزَّق.

لمّا وقعَ نظر ابن أبي دؤادَ عليه قال: «والله ما عَلِمْتُك إلا متناسياً للنّعمة، كفوراً للصنيعة، مَعْدِناً للمساوىء». فقال الجاحظُ معتمداً على ذكائِه وبلاغتِهِ: «خَفِّضْ عليك، فوالله لأنْ يكونَ لك الأمرُ علي، خيرٌ من أن يكونَ لي عليك. ولأن تحسنَ وأُسيء، أحسنُ في الأحدوثةِ من أن أحسنَ وتُسيء، ولأن تعفوَ عني في حالِ قدرتِك أجملُ بك من الانتقامِ مني». فاغتاظَ ابنُ أبي دؤاد من كلامِهِ وقال: قَبَّحك الله، والله ما علِمْتُكَ إلاَّ كثيرَ تزويقِ الكلام، وقد جعلتَ بيانَك أمامَ قلبِك، ثم أضْغنتَ فيه النفاقَ والكُفر، ما تأويلُ هذه الآية ﴿وكذَلِكَ أَخْذُ ربِّك إذا أَخَذَ القُرَى وهي ظَالمة، إنَّ أَخْذَه أليمٌ شديدٌ ﴾؟. فقال الجاحظ: تلاوتُها تأويلُها، أعزَّ الله القاضي. فقال: جيئوا بحدّاد. فبادرَه الجاحظ: أعزَّ الله القاضي،

لِيَفُكَّ عني أو لِيَزيدَنِي؟. قال القاضي: ليفكَّ عنك.

جيءَ بالحداد، فأوعزَ إليه بعضُ أهلِ المجلسِ أن يقسو على ساقِ الجاحظ وهو يَفُكُّ أغلالَه، وأن يطيلَ في عملِه تعذيباً للجاحظ، ففعل. فما كان من الجاحظ إلا أن لَطَمه قائلاً: «اعملْ عملَ شهرٍ في يوم، وعمل يومٍ في ساعة، وعملَ ساعةٍ في لحظة، فإنَّ الضررَ على ساقي، وليس بجذعٍ ولا ساجَة» (الساجةُ شجرةٌ كبيرةٌ صُلْبةُ الخشب). فضحكَ ابنُ دؤادَ ومن كان حاضراً بالمجلس.

وقال القاضي لمحمدِ بنِ منصورٍ الكاتب، وكان حاضراً: أنا أثقُ بظَرْفِه، ولا أثقُ بدينِه. ثم قال: يا غلامُ سِرْ إلى الحمامِ، وأمِطْ عنه الأذى، واحملْ إليه تختَ ثيابٍ وطويلةً وخُفّا. فنُزعت عنه باقي الأغلالِ والقيود، وأُدخلَ إلى الحمامِ فاستحم، وحُملت إليه الملابسُ والنَّعل. ثم عادَ إلى مجلسِ ابنِ دؤاد، فأجلسَه في صدْرِ المجلس، وأقبلَ عليه قائلاً: هاتِ الآن حديثَك يا أبا عثمان.

وهكذا تحولَ ابنُ أبي دؤاد، بعدَ هذه الواقعة، من عدوٍّ وخصمٍ للجاحظ، إلى حليفٍ وصديق، وحَفِظَ الجاحظُ هذا الجميلَ، فأهداه كتابَه الشهيرَ «البيان والتبيين» فمنحَه هو الآخرُ خمسةَ آلاف دينار.

وقد اعتزَّ ابنُ أبي دؤادَ بهذا الإهداء، فكتابُ «البيان والتبيين» يعتبرُ من أهمِّ ما كتبَ الجاحظُ بعد «كتاب الحيوان». وقد أصبحَ هذا الكتابُ بعد ذلك مصدراً لثقافةِ الأدباءِ والشعراءِ العربِ على مَدَى العصور.

شيخوخةٌ ومرضٌ

وهكذا اصبحَ الجاحظُ في خلافةِ المتوكل، صديقاً لوزيرهِ ابن أبي دؤادَ، كما كانت له صلةٌ وثيقةٌ بوزيرِه التركيِّ الفتحِ بن خَاقَان، وقدَّمَ له بعضَ كتبِه، وكان الفتحُ يُثْني على الجاحظِ عندَ المتوكل، فيأخذُ له منه الجوائزَ الطائلة.

وعن هذه الأيامِ يَحكي الجاحظُ قصّة، كان غيرُه يتحرَّجُ من قولِها، غير أن الثقةَ بالنفسِ وروحَ الفكاهةِ عند الجاحظِ رفَعت عنه ذلك الحَرَج، يقول إن البعضَ رَشَّحه مدرّساً لبعضِ أولادِ المتوكلِ بعد تولّيهِ الخِلاَفة، فذهبَ الجاحظ لمقابلةِ الخليفةِ الجديد، «فلمَّا رآني استبشعَ منظري، فأمرَ لي بعشرةِ آلافِ دِرهم، وصرَفَني».

والحق، أنَّ الجاحظَ كان قبيحَ المنظر، مشوّه الوجهْ، جاحظَ العينين، أسودَ اللون، مختلَّ القَسمات والملامح. ورغمَ هذا، فقد كان لطيفَ المعشر، حُلوَ الحديث، سريعَ النكتة، شديدَ السُّخْرِيّة، وفيّاً لأصحابِه. وكان بالإضافةِ إلى ذلك مقبلاً على الحياة، محبَّاً لها، مؤمناً بها، يحترمُ العقلَ ويُجِلُّه ويُحَكِّمُه في كلّ شيء. يميلُ إلى التفاؤل، وينظرُ إلى الأمورِ نظرةً دقيقة، وهو إلى جانبِ ذلك كله، يحبُّ اللهوَ وسَماعَ الجوارِي والمغنّين، يتذوقُ الجَمال، لم يُسمعْ أنه اقترفَ إثماً، أو ارتكبَ ذنباً.

وكان الجاحظُ في خلافةِ المتوكلِ يعيشُ وفيرَ المال، عَرِيضَ النُفوذ. ويُحكَى أن صديقاً له يدعَى مَيمونَ بن هارون دخلَ عليه، فرأى ما فيه من ثَرَاء وجاه، فقال له: ألك ضيعةٌ بالبصرة؟. فابتسمَ الجاحظُ وقال: «إنما أنا، وجاريةٌ لي، وجاريةٌ تخدمُها، وخادِمٌ،

وحِمارٌ. أهديت «كتاب الحيوان» إلى محمد بن عبدِ الملك فأعطاني خمسةَ آلافِ دينار، وأهديت كتابَ «البيان والتبيين» إلى أحمدَ بنِ أبي دُؤاد فأعطاني خمسةَ آلاف دينار، وأهديت كتابَ الزّرعِ إلى إبراهيمَ بنِ العبّاسِ الصُّوليّ فأعطاني خمسةَ آلاف دينار. فانصرفت إلى البَصرة، ومعي ضَيعةٌ لا تحتاجُ إلى تجديدٍ ولا تَسمِيد».

بعد أن تقدمَ العمرُ بالجاحظِ عاد ليقيمَ بالبصرةِ مَسْقِطِ رأسِه. أدركته الشيخوخةُ ولاحقَه المرض، ومع ذلك فقد بقيت له مكانتُه، يسعَى إلى مجلسِه العُظماء، ويسألُ عنه الخلفاء، ويفاخرونَ بصداقتِه. وكان جميعُ رجالِ الدولةِ أصدقاءَ له، يسألون عنه، ويتحرّون أخبارَه، وقبلَ وفاةِ المتوكّل، أرسلَ إلى البصرةِ يطلبُ حضورَ الجاحظ، فقال لرسولِ المتوكل: وما يصنعُ أميرُ المؤمنين بمن كان نصفُه مفلوجاً (مشلولاً) لو حُزَّ بالمناشيرِ ما شَعَرَ به، ونصفُهُ الآخر مُنَقْرساً (مصاباً بمرضِ النَقْرِس في المفاصل) لو طارَ الذّبَابُ بقربِه لآلَمَه، وأشدُّ ما عليَّ ستٌّ وتسعون سنة، وأنشد:

أترجو أن تكونَ وأنت شَيخ
كما قد كنت أيامَ الشباب
لقد كَذَبْتك نفسُك ليس ثَوبٌ
دَرِيسٌ كالجديدِ من الثياب

في عام ٨٤٤ م (٢٣٠ هـ) أصيبَ الجاحظُ بالشللِ وشُفِيَ منه، وعاودَه المرضُ عام ٨٦٠ م (٢٤٦ هـ). وقد جاءت في كتابِ (عيون الأنباءِ في طَبَقَاتِ الأطبّاء) لابن أبي أُصَيْبِعة قصةٌ عن سببِ

مرضِ الجاحظ، فيقال إنَّه اجتمعَ يوماً مع يوحنّا بنِ ماسَوَيْه على مائدةِ أحدِ الكتّابِ والوزراء، وكان ضِمْنَ ما قُدّمَ مع السّمك، طبَقٌ عَرَبيٌّ يُسمَّى المَضِيرة مصنوعٌ من اللّبن، فامتنعَ يوحنّا عن الجمْعِ بينهما. فقال الجاحظ: أيّها الشيخُ لا يَخلو أن يكون السمكُ من طَبْعِ اللبنِ أو مضاداً له، فإذا كان أحدُهما ضدَّ الآخر فهو دَواءٌ له. وإنْ كانا من طبعٍ واحدٍ فلْنحسِبْ أنا قد أكلنا من أحدِهما إلى أن اكتفينا. فقال الطبيبُ يوحنا: والله ما لي خبرةٌ بالكلام والجَدَلِ، ولكن كلْ يا أبا عُثمان، وانظر ما يكونُ في غد. فأكَلَ الجاحظُ معتمداً على ما قاله من تحليلٍ منطقيّ. فأصابهُ الشللُ في نفسِ الليلة، وقال: هذا والله نتيجةُ القياسِ المنطقيِّ المستحيل!.

وعندما أصيبَ الجاحظُ بالشللِ مرّةً ثانية، ظلَّ حافظاً لقواه الفكريةِ والعقلية، ووفدَ عليه الأدباءُ والعلماءُ من كلِّ مكان، يزورونه للاطمئنانِ على رائدِ الفكرِ العربيِّ أبي عثمانَ الجاحظ. وكان أثناءَ المرض، مثالَ المؤمنِ الصابرِ، يفتحُ بابَه للزائرين كلما أمكنَه ذلك. ولم ينقطعِ الجاحظُ عن الكتابةِ والتأليفِ طوالَ مدةِ مرضِه، مما يدلُّ على أنه كان على جانبٍ كبيرٍ من قوةِ الجسم، ومتانةِ الأعصاب، وحضورِ البديهة.

نهايةٌ مأسوية

في كانون الثاني (يناير) ٨٦٨ م (محرم ٢٥٥ هـ)، كانت وفاةُ الجاحظِ في خلافةِ المعتزِّ بالله. كان الجاحظُ قد أصبحَ عليلاً محطّماً من أثرِ المرضِ والشّيخوخة، ينتظرُ الموتَ كلَّ صباحٍ ومساء، ومع هذا كان ما يزالُ يعيشُ في عالمِ الفكرِ والكتبِ

والقراءة. غير أن صحتَه أخذت في التدهورِ يوماً بعد يوم.

وذاتَ مساء، بينما كان جالساً في حجرَتِه المحببة إليه يقرأُ فيها ويطالعُ كتبَه الأثيرةَ إلى نفسه، إنهالَ عليه صفٌّ من الكتبِ فقضى عليه. ماتَ الجاحظُ مَدفوناً بالكتبِ التي كانت نسيجَ حياتِهِ، وشُغْلَه الشاغلَ منذ مولدِه وحتى مماتِه.

عندما وصلَ نَعْيُه إلى قصرِ الخلافةِ ببغداد، أسفَ المعتزُّ عليه أشدَّ الأسف، وقال لبعضٍ من معه: لقد كنت أحبُّ أن أستقدمَه ليقيمَ عندي. رثاهُ الشعراءُ والكتّاب، واهتزَّت بلدتُه البصرَةُ لوفاتِه، فقال أبو شراعَةَ القيسيُّ يرثيه:

فـي الـعـلـمِ والـعـلـمـاءِ إن يَـتـفـهـمـوه مـواعـظُ
وإذا نَـسِـيـت وقـد جـمـعـ ـت عـلا عـلـيـك الـحـافـظ
ولـقـد رأيـت الـظـرفَ دَهْـرا مـا حـواه الـلافـظ
حـتـى أقـامَ طـريـقَـه عَـمـرو بنُ بـحـرِ الـجـاحـظ
ثـم انـقـضَـى أمـدٌ بـه وهـو الـرئـيـسُ الـفـائـظ

ماتَ الجاحظُ وقد بلغَ من العمرِ مائةً وخمساً من السنوات، لم يتركْ زوجاً ولا ولداً، فهو لم يتزوجْ قط. مات الجاحظُ لتتواصلَ حياتُهُ من خلالِ ما كتبَ عنه وعن أعمالِه، من جاءَ بعدَه من الأدباءِ والمفكّرين. فظهرت عنه آلافُ الدراسات، وتتلمذَ عليه أعلامُ العربيةِ في عصرِه، وما تلا ذلك من العصور. فلا يَخلُو كتابٌ من كتبِ الأدبِ والتاريخِ والنقدِ والشعرِ والعِلم، مِن ذكرِ الجاحظِ وأدبِه وبلاغتِهِ وعلمِه، والحديثِ عن كتبِه التي بلغت نحو ٣٦٠ كتاباً.

هكذا كانت حياةُ رائدِ الفكرِ العربيِّ الإسلامي في عصرِه. وقد وُضِعَ عن حياتِهِ وأفكارِه العديدُ من الكتبِ، لعلَّ أميزَها كتاب «تقريظ الجاحظ» لأبي حيّانِ التوحيدي. وكان الجاحظ عربياً في دمِه ورُوحِهِ وفكرِه. وكان إخلاصُه للفكرِ والثقافةِ أعظمَ من إخلاصِهِ لأي شيءٍ آخر، وكانت لَذَّتُه في الدراسةِ والبحثِ أكثرَ من لذتِهِ في السياسةِ والحكمِ والسّلطة.. لم تُورِثه شهرتُهُ العلميةُ ومكانتُه الأدبيةُ زَهْواً أو غروراً أو كبرياءَ وتعالياً على الناس.

ماتَ الذي قال:

وكـــان لـــنـــا أصـــدقـــاءٌ مَـــضَـــوْا
تَـــفَـــانَـــوْا جـــمـــيـــعـــاً ومـــا خُـــلِّـــدوا
تَـــسَـــاقَـــوْا جـــمـــيـــعـــاً كـــؤوسَ الـــمَـــنُـــونِ
فـــمـــاتَ الـــصـــديـــقُ ومـــاتَ الـــعَـــدُو

الجاحظُ عالماً

كانت للجاحظِ مكانةٌ علميةٌ عاليةٌ في عصرِه. وقد رفعَ من مكانتِهِ العلمية، سَعةُ ثقافتِه وتنوعُ مصادرِها، وسَعيُه إلى الإحاطةِ بالعلومِ المترجمة. لم يكن يعتمدُ في علمِهِ على القراءةِ فقط، بل كان يَحرِصُ على ملاقاةِ العلماءِ ومحاورتِهِم.

لم يقبلِ الجاحظِ الأوهامَ التي لا يَسْنِدُها الدليلُ والتي قَبِلَها الكثيرُ ممن عاصروه، بل كان يَهزأُ بمن يقبلُها على عِلاَّتِها. وكان بحثُه يعتمدُ على أسلوبِ التجريبِ العلميّ، الشكّ الذي يقودُ إلى المعرفةِ الحقّة. فكان وهو يُعِدُّ مادةَ كتاب الحيوان، يدقّقُ الملاحظةَ حتى يصلَ إلى الحقائقِ الثابتةِ، فهو يراقبُ صياحَ الدّيكِ فجراً،

ويبحث: هل إذا كان في قريةٍ وحدَه يصيحُ أم لا؟. وذلك حتى يعلمَ إن كان صياحُ الدَيَكَةِ نتيجةَ طبعٍ ثابتٍ فيها، أم إنه نتيجةٌ لتجاوبِ الديكِ مع غيرِه من الديكَة.

ومع هذا، فالجاحظُ لم يعتمدْ على الحواسِّ وحدَها في الوصولِ إلى الحقائق، وفي هذا يقول: «لعَمرِي إنَّ العيونَ لتُخطىء، وإن الحواسَّ لتكذِب، وما الحكمُ القاطعُ إلا للذهْن، والاستبانةُ الصحيحة إلا للعقل». ولعلَّ جُذُورَ المذهبِ العمليّ الحديث، بما تَتضمّنُه من روحِ علميةٍ في البحث، وشكٍّ حتى تَتضحَ الرؤية، وتَجريب.. لعلَّ هذه الجذورَ يرجعُ فضلُها إلى الجاحظ، أكثرَ مما يرجعُ إلى بيكون الذي تُنسبُ إليه.

وخيرُ دليلٍ على ما نقول «كتابُ الحيوان» الذي أهداه الجاحظ لابن الزياتِ.

كتابُ الحيوان

يشتملُ هذا الكتابُ على وصفِ طبائعِ الحيوان. وهو لا يقتصرُ على تسجيلِ التجربةِ العلميةِ الجافة، بل هو أشبهُ بالموسوعةِ الشاملةِ المحيطة، التي يجتمعُ فيها كلُّ ما تفرَّقَ في كتبِ العلماء، وأدبِ الأدباء، وشعرِ الشعراء، حول الموضوع الذي تَتناولُه.

ومراجعُ الجاحظِ في هذا الكتاب عديدة، تتضمَّنُ حصيلةَ مختلفِ الثقافاتِ المعروفةِ في زمانِه، من عربيةٍ ويونانيةٍ وفارسيةٍ وهندية، بالإضافة إلى العديدِ من تعاليمِ الدياناتِ والعقائد.

ولا شك أنّ من بين أهمّ هذِه المراجع، كتبَ الفيلسوفِ

اليونانيّ «أرسطو»، وإن كان الجاحظُ قد اعتمدَ أيضاً في كتابِه على أعمالِ «أقليمون»، و«جالينوس» من علماءِ الإغريق.

والجاحظُ في كتابِهِ «الحيوان»، لم يقتصرْ على طَبَائِع الحيوانات، بل توسَّعَ في موضوعِ كتابِه، ليشملَ معلوماتٍ واسعةً في الحيوانِ وغيرِ الحيوان، ومزجَ الجِدَّ بالهَزل، والعلمَ بالأدب، والفكاهَةَ بالمُجُونِ مَزْجاً غريباً. وكانت للجاحظِ في ذلك حِكمة. كان يعرفُ انصرافَ الناسِ عن الحقائقِ العلميةِ الجافّة، فأراد أن يتسلَّل إلى عقولِهم ونفوسِهم بكلِّ الطرقِ الممكنة، حتى يضمنَ استيعابَهم لما يقول. وهو يبررُ ذلك قائلاً: «إني أُوشّحُ هذا الكتابَ بنوادرَ من ضروبِ الشّعر، وضروبِ الأحاديث، ليَخرُجَ قارئُه من بابٍ إلى باب، ومن شكلٍ إلى شكل، فإنّي رأيت الأسماعَ تَمَلُّ الأصواتَ المطربةَ والأغانيَ الحسنةَ والأوتارَ الفصيحةَ إذا طال ذلك عليها».

والجاحظُ يعاني من سلوكِه هذا السّبيل، لكنّه لا يرى مناصاً من ذلك فيقول: «ولولا سوءُ ظنّي بمن يُظهِرُ التماسَ العلمِ فِي هذا الزّمان، ويظهرُ اصطناعَ الكتبِ في هذا الدّهر، لما احتجتُ إلى مداراتِهم واستمالتِهم، وترقيقِ نفوسِهم، وتشجيعِ قلوبِهم، مع فوائدِ هذا الكتاب، إلى هذه الرياضةِ الطويلةِ وإلى كثرةِ هذا الاعتذار. حتى كأنّ الذي أفيدُه إياهم، أستفيدُه منهم».

وفي كلماتِ الجاحظِ هذه، خيرُ ردٍّ على ما وُجّهَ إلى الكتابِ من نقد، بافتقادِه الوَحدةَ التأليفيةَ التي نَعهدُها في الكتبِ العلمية. لقد كان الجاحظُ واعياً للطريقةِ التي اختارها لعرضِ معارفِه العلمية،

عارفاً بالطريقِ الذي يجبُ أن تسلُكَه لتحقيقِ هدفه.

وكتابُ الحيوانِ يتضمنُ إلى جانبِ المعارفِ العامةِ التي انسحبت على أجزائِه السبعة، دراساتٍ عن عددٍ من الحيوانات مثلِ: الديك والكلبِ والحمامِ والذبابِ والغربانِ والنملِ والقِردِ والخنزِير والثعابينِ والنَّعامِ والفأرِ والجُرذانِ والسنانيرِ والهدهدِ والتَمساح والأرنب.

كتبٌ ورسائلُ علميةٌ أخرى

وللجاحظِ غيرُ كتابِ الحيوانِ العديدُ من الكتبِ والرسائلِ العلمية. منها كتاب «الأوفاقُ والرّياضيات»، و«الحَلْبة»، و«فضلُ العِلم»، ورسالةٌ في الكيمياء، ودراسةٌ علميةٌ عن الغِنَاءِ والمغنّين وصَنعةِ الغناءِ وطبقاتِ المغنين، وكتابُ «التّفاح»، و«الزرعُ والنخلُ والزّيتون والأعناب»، و«الأسدُ والذئب»، و«البغالُ ومنافعُها»، و«الإبل»، هذا بالإضافةِ إلى كتبِه ورسائِله الجغرافية مثل «افتخار الشتاء والصيف»، و«الأمصار وعجائب البلدان، وكتاب «سَلْوة الخريف بمناظرةِ الربيع والخريف».

وقد اختلفَ النقادُ في قيمةِ الجاحظِ العلمية، فمنهم من عدَّه عالماً كبيراً من أكبرِ العلماء، ومنهم من حطَّ من مكانتِه العلمية. والحقيقةُ أن الجاحظَ عالمٌ وإن غَلَبت عليه الصِّبغةُ الأدبية، لكنّ علمَه لا يخلو من أخطاء، نتيجةً لضعفِ الوسائلِ العلميةِ في أيامِه، الأمرُ الذي نجدُه عند سائرِ العلماءِ الأقدمين.

الجاحظُ فيلسوفاً

كان الجاحظُ إماماً من أئمةِ المعتزلة، وشيخاً من كبارِ شيوخِهم. وقد نشأَ مذهبُ المعتزلةِ بالبصرَة، مسقِطِ رأسِ الجاحظ، ويعتمدُ على خمسةِ مبادىء (العدل - التوحيد - القول بالوعدِ والوعيد - القولُ بالمنزلة بين المنزلتين - الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر). وقد تأثَّر مذهبُ المعتزلةِ بالفلسفةِ اليونانية، وأصبحَ أتباعُه من أشدِّ المؤمنين بسلطانِ العقلِ ووجوبِ تحكيمِه في كلِّ الأمور.

وقد تتلمذَ الجاحظُ في هذا المذهبِ على يدِ أبي إسحاقَ إبراهِيمَ بنِ سيَّارِ البَصْري، الشهيرِ بلقبِ «النَّظَّام». ويقولُ الجاحظُ عنه: الأوائل يقولون: «في كلِّ ألفِ سنةٍ رجلٌ لا نظيرَ له»، فإن كان ذلك صحيحاً، فالنظامُ من أولئك.

وانفردَ الجاحظُ من بين المعتزلةِ بآراءٍ خاصةٍ به. فكان له في هذا أنصارُه ومريدوه وتلاميذُه. وللجاحِظِ كتبٌ كثيرةٌ في الاعتزالِ من بينها «فضيلةُ المعتزلة»، و«فضيلةُ الكلام»، و«خلقُ القُرآن».

الجاحظُ أديباً

يُعَدُّ الجاحظُ رأسَ المدرسةِ النثريةِ الثانيةِ في الأدبِ العربي، وقد كان عبدُ الحميدِ وابنُ المقفعِ رأس المدرسةِ الأولى. وفي أسلوبِ مدرستِهِ نَزعةٌ إلى الطراوةِ التي تلائمُ التقدمَ الحضاريّ في عصرِه، وميلٌ إلى الإسهابِ والإطلالة، ورجوعٌ إلى العربِ والاستقاءِ من ينابيعِ أدبِهم، وشَغَفٌ بالمنطقِ كلما دَعَت إليه الحاجة.

ولقد استهوت شخصيةُ الجاحظِ الأدباءَ في عصرِه وبعد عصرِه، فكان له أثرُه الكبيرُ في الأدبِ العربي. وكان الخلفاءُ يكتبونَ إليه، يطلبون منه أن يساهمَ بقلمِه البليغِ في صياغةِ الرسائلِ التي تؤيدُ مبادئهم ودعوتَهم الدينيةَ والسياسية، حتى تَقْوَى حجتُهم على خصومِهم. وقد كَتَبَ في فلسفةِ اللغةِ والنقدِ والبلاغةِ والقصةِ والمقالةِ والرسالة، هذا بالإضافةِ إلى قصائدِه الشعرية.

وامتازَ ذوقُ الجاحظِ الأدبيُّ بالإبداعِ واليُسرِ والسّهولة، والفكاهةِ البارعة، والسُّخْريةِ النادرة. يُحْسِنُ اختيارَ الكلماتِ ويضعُها في موضعِها، ويفهمُ وقعَ الكلمةِ في نفسِ القارىء. وكان واقعياً في أدبِه، واقعيةَ الأديبِ المتفائِل المرحِ الطموحِ الذي يستمدُّ أدبَه من حياةِ كلِّ الناسِ والطبقاتِ والبيئات.

أمّا من حيثُ الشعرُ، فهو لم يتفوّق فيه، فقد كان مشغولاً عنه، غيرَ متفرغٍ له، وليست لشعرِه قيمةٌ فنيةٌ كبرى، ولا يحمِلُ ثقافةَ الجاحظِ، كما لا يعكِسُ شخصيتَه. غير أن للجاحظِ آراءً كثيرةً في البيانِ والبلاغة، فيعدُّ الواضعَ الأولَ لعلمِ البيانِ العربي، والمؤسسَ بحقٍّ لأصولِ البلاغة. وقد جعلَه ابنُ خلدُون من السابقين في التأليفِ فيها. ورأى طه حسين أنه أولُ من اهتمَّ بالبلاغةِ وأنه مؤسسُ البيانِ العربيِّ حقاً. ومن آثارِ الجاحظِ في المجالِ الأدبي: كتابُ البيان والتبيين.

كتابُ البيان والتبيين

وهو كتابٌ في الأدبِ من آخرِ ما كَتَبَ الجاحظ، يتضمَّنُ مختاراتٍ أدبيةً متفرقة، من الآياتِ القرآنيةِ والحديث، والشّعر،

والحكمةِ، والخُطْبة. ويتناولُ الجاحظُ موضوعاتِه في هذا الكتاب بلا ترتيبٍ معيّن، فهو يتكلمُ عن الفصاحةِ وعيوبِ اللسانَ، كاللُّكنة، والتَّمتمة. وعيوب الخَطَابَةِ كالنّحنحة، والسُّعال. والأسنانِ وعلاقتِها بالخَطَابَة، وفيه حديثٌ عن موسيقى الكلام. ويوردُ فيه الكثيرَ من كلامِ العربِ وتاريخِ أخبارِ الخطباءِ والعلماء، والكُهّان، والنُّسّاك.

في هذا الكتابِ تظهرُ نزعةُ الجاحظِ العَرَبية، فيوردُ ما للعربِ من مظاهرِ البلاغة. لكنّه في نفسِ الوقتِ يوردُ آدابَ الفرسِ وحكَمَ الهنودِ وهو يتكلمُ أيضاً عن عقيدةِ تناسخِ الأرواح.

وخيرُ ما يدلُّ على قيمةِ هذا الكتابِ قولُ ابن خَلدون: «سمعنا من شيوخِنا في مجالسِ التعليم، أن أصولَ فنِّ الأدبِ وأركانَه أربعةُ دَواوين، وهي: أدبُ الكاتبِ لابنِ قُتَيبة، وكتابُ الكاملِ للمبرِّد، وكتابُ البيانِ والتّبيين للجاحظ، وكتابُ النوادِر لأبي عليٍّ القَالِي».

كتابُ البُخَلاءَ

هو كتابٌ طريفٌ جَمَعَ فيه الجاحظُ أخبارَ البُخلاء، فصوَّرَ حالَهم مُورداً طرائفَ مشاهيرِهم. وهو في هذا الكتابِ يُجْرِي المقارناتِ بين البُخلِ والكرم. والجاحظُ في ذلك يكشفُ عن نَزعةٍ عربيةٍ أصيلة، فقد كتبَ كتابَه هذا دفاعاً عن العربِ في وجهِ من سَفّهوا هذه الصِّفة من الفرس. ويكشفُ الكتابُ عن سَعةِ إدراكِ الجاحظِ، ودقةِ ملاحظتِه لتصرفاتِ الناس، والتقاطِه الحسّاسِ لأدقِّ حَرَكات البُخلاء.

وليست غايةُ الجاحظِ من الكتابِ الهجاءَ لمجردِ الهجاء، إنّما غايتُهُ إصلاحُ تلك الفئةِ من الناس، التي اتَّخذت البخلَ مذهباً. وهو عندما يهاجمُ البخلَ لا يدافعُ عن السَّفَهِ والإسراف، بل يُذكّرُ بفوائدِ الاقتصاد. ولقد نَجَحَ الجاحظُ في أن يقدّمَ البخلاءَ في إطارٍ لا يُنفِّرُ الناسَ منهم ومن سيرتِهِم. وللكتابِ فائدةٌ كبرى، فهو يُطْلعُنا على مظاهرِ الحياةِ في المجتمعِ العباسي، وبخاصةٍ مجتمعَ البصرةِ وخُراسان. وهو يُعتبرُ بهذه الصفة مرجعاً حيّاً لمن يريدُ دراسةَ احوالِ البشرِ وعاداتِهم في ذلك العصرِ.

رسالةُ التربيعِ والتّدوير

وهي تعتبرُ من أدبِ السُّخريّةِ والفكاهة. وقد كتبها الجاحظُ في هجاءِ رجلٍ يدعَى أحمدَ بنَ عبد الوهاب، ووصفَه بالعرضِ والضَّخامةِ والقِصَر، وتحدَّثَ في ذلك عن التربيعِ والتدوير، الذي استقَى منه اسمَ الكتاب.

وعنصرُ الفكاهةِ والتندّرِ والتصوير الكاريكاتوري له صلةٌ وثيقةٌ بحياةِ الجاحظِ نفسِه. فقد كانت دَمامةُ الجاحظِ أحدَ الأسبابِ التي طَبعتْه على السخريةِ والتندّر، وكان يسعَى إليها. حتى وهو يتناولُ أكثرَ الموضوعاتِ جِدّية.

وهو يصفُ ذلك الشخصَ بأنه «يَعُدُّ أسماءَ الكتبِ ولا يفهمُ معانيها، ويحسدُ العلماءَ من غيرِ أن يتعلقَ فيهم بسبب، وليس في يدِه من جميعِ الآدابِ إلا الانتماءُ لاسمِ الأدب». وفي هذه الرسالةِ تتضحُ لنا سَعةُ اطلاعِ الجاحظ، فهو يستقِي معلوماتِهِ من تاريخِ العالَمِ بشكلٍ عام، وتاريخِ العربِ بصفةٍ خاصة، كما يعتمدُ على

القرآنِ الكريم، والحديثِ الشريف، وعلى كتبِ الفلسفةِ والعلومِ اليونانيةِ والفارسيةِ وغيرِها.

ورغمَ أن لهذه الرسالةِ قِيمةً علميةً واضحة، فالاعتبارُ الأولُ فيها للقيمةِ الأدبية. ولقد بَلَغت سخريةُ الجاحظِ في هذه الرسالةِ حداً لم يبلغْه كاتبٌ ولا شاعرٌ في اللغةِ العربية، عند سخريتِه من شخصٍ من الأشخاص.

نماذجُ من إنتاجِ الجاحظ

كتابُ الحيوان

رغم أن اكتشافَ تنفّسِ الجسمِ من المسامِّ التي بالجلدِ، وعدمَ انحصارِ عمليةِ التنفسِ في الرئتينِ فقط، يعتبرُ من الاكتشافاتِ العلميةِ الحديثةِ نسبياً، نجدُ الجاحظَ يوردُ في كتابِهِ الحيوان ما يلي:

«لولا أنَّ تحتَ كلِّ شعرةٍ وزُغبةٍ مجرَى نَفَس، لكان المخنوقُ يموتُ مع أولِ حالاتِ الخنق، ولكنّ النفْسَ كان لها اتصالٌ مع النسيمِ من تلك المجاري على قَدْرٍ من الأقدار فكان نقطها جوفَ الإنسانِ. فالريحُ أو البخارُ لمَّا طَلَبَ المنفذَ فلم يجدْه، دارَ وكُثّفَ وقَوِي فاستدَّ له الجلدُ فسدَّ له المجاري، فعندَ ذلك ينقطعُ النَّفس، ولولا اعتصامُها بهذا السَّبب لكانت انقطعت إلى أصلِها مع أولِ حالاتِ الخَنْقِ».

وعن الذّباب يقول:

«ذكرَ محمدُ بنُ الجَهْمِ فيما خَبَّرني عنه به بعضُ الثقاتِ أنه قال لهم ذات يوم: هل تَعرفون الحكمةَ التي استنفدناها من الذّباب؟. قالوا: لا. قال: بلى، إنَّها تأكلُ البعوضَ وتصيدُه

وتَلقُطه وتُفْنيه!. ذلك اني كنت أريدُ القائلة (وهو النومُ في نصفِ النهار)، فأَمرت بإخراجِ الذبابِ وطَرْحِ السِّترِ وإغلاقِ البابِ قبلَ ذلك بساعة. فإذا خَرَجنَ حصلَ في البيتِ البعوضُ، وقويَ سلطانُه. فكنتُ أدخلُ القائلة فيأكلني البعوضُ أكلاً شديداً. فأتيت ذاتَ يومٍ المنزلَ في وقت القائلة، فإذَا البيتُ مفتوح، والسِترُ مَرفوع، وقد كان الغلمانُ أغفلوا ذلك في يومِهم، فلما اضطجعت للقائلة، لم أجدْ من البعوضِ شيئاً، فنمت في عافية.. فعلمت أنّ الصوابَ في جمعِ الذبابِ مع البعوض، فإنّ الذبابَ يُفْنيه».

ويقول في خِصَالِ الديك:

«في الديكِ الشّجاعة، وفي الديكِ الصبرُ عند اللقاء.. وفي الديكِ الجَوَلانُ وهو ضَرْبٌ من الرَّوغَان، وجنسٌ من تدبيرِ الحَرب، وفيه الثقافةُ (بمعنى الحِذْق) والتّسديد، وذلك أنه يُقدِّرُ إيقاعَ صِيصَتهِ (أي طرفَ منقارِهِ) بعينِ الدّيك الآخر، ويتقربُ إلى المذبحِ فلا يُخطىء.. وله مع الطعنةِ سرعةُ الوثبِ والارتفاع في الهواء».

كتابُ البخلاء

«حَدَّثني إبراهيمُ بن السِّنديِ قال: كان على ربع الشَّاذَرْوَان (من أحياءِ بغداد) شيخٌ لنا من أهلِ خُراسان، وكان مصحّحاً، بعيداً عن الفسادِ ومدِّ الرِّشاءِ (الرِّشوة)، ومن الحُكم بالهوى، وكان حَفِياً جداً، وكذلك في إمساكِهِ وفي بخلِهِ وتدنيقِه (تقتيرِه) في نفقاتِه. وكان لا يأكلُ إلاَّ ما لا بدَّ منه، ولا يشربُ إلاَّ ما لا بدَّ منه. غيرَ أنه إذا كان في غَداةِ كل جُمُعة، حملَ معه مِنديلاً فيه جَرْدَقتان

(رغيفان) وقطعةُ لحمِ سُكْبَاح (لحمٌ مجهَّزٌ بالخلّ) مبرَّد، وقطعةُ جُبن، وزيتونات، وصُرّةٌ فيها مِلْح، وأخرى فيها أُشْنان (نوعٌ من النبات)، وأربعُ بيضات ليس منها بدّ، ومعه خِلالٌ (لتنظيفِ أسنانِهِ)، ومضى وحدَه حتى دخلَ بعضَ بساتينِ الكَرْخ. وطلبَ موضِعاً تحت شَجرة، وَسْطَ خُضرة، وعلى ماءٍ جار. فإذا وَجَد ذلك جَلَس، وبسطَ بين يديهِ المندِيل، وأكلَ من هذا مرّة، ومن هذا مرة. فإنْ وَجَدَ قَيِّمَ (حارس) ذلك البستانِ رمى إليه بدرهم، ثم قال: اشترِ لي بهذا، أو أعطِنِي بهذا رُطَباً، إن كان في زمانِ الرُّطَب، أو عِنَباً إن كان في زمانِ العنب، ويقول له: إياك إياك أن تُحابِيني، ولكنْ تَجَوَّدْ لي (أي تخيَّر الجيّد)، فإنك إن فعلت لم آكلْه، ولم أَعُدْ إليك، واحذَر الغُبنَ فإنَّ المغبونَ لا محمودٌ ولا مأجور. فإنْ أتاه به أكلَ كلَّ شيء معه، وكلَّ شيءٍ أتى به، ثم تخلَّلَ (أزال بقايا الطعامِ من أسنانِه) وغسَلَ يديه، ثم يَمشِي مقدارَ مئةِ خُطْوة، ثم يضعُ جنبَه فينامُ إلى وقتِ الجُمُعة، ثم ينتبهُ فيغتسلُ ويَمْضِي إلى المسجد.

هذا كان دأبَه كُلَّ جُمُعة. قال إبراهيم: فبينما هو يوماً من أيامِهِ يأكلُ في بعضِ المواضع، إذ مرَّ به رجلٌ فسلَّمَ عليه، فردَّ السلامَ ثم قال: هلمَّ عافاكَ الله. فلما نظرَ الرجلَ قد انْثنى راجعاً.. قال: مكانَك! فإنَّ العجلةَ من الشّيطان. فوقفَ الرجل. فأقبلَ عليه الخُرسانيُّ وقال: تريدُ ماذا؟. قال: أُريدُ أن أتغذَّى. قال: ولم ذلك، وكيف طَمِعت في هذا، ومن أباحَ لك مالي؟. قال الرجل: أوليس قد دَعوتني؟. قال: ويلَك، لو ظننتُ أنك أحمقُ هكذا ما

رددتُ عليك السّلام، الأمرُ فيما نحن فيه، أن تكونَ إذا كنت أنا الجالسَ وأنت المارّ، تبدأُ أنت فتسلّم، فأقولُ أنا حينئذٍ مجيباً لك: وعليكم السلام. فإذا كنت لا آكُلُ شيئاً سكتُّ أنا ومضيتَ أنت، وقَعدتُ أنا على حالي. وإن كنتُ آكل، فهاهنا بيانٌ آخر، وهو أن أبدأَ أنا فأقول «هلمّ» وتجيبُ أنت فتقول «هَنِيئاً»، فيكون كلامٌ بكلام، فأمّا كلامٌ بِفِعال، وقولٌ بأكل، فهذا ليس من الإنصاف».

كتابُ البيان والتبيين

«إن كلامَه صلّى الله عليه وسلم: هو الكلامُ الذي قلَّ عددُ حروفِه وكثُر عددُ معانيه، وجَلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلّف.. استعملَ المبسوطَ في موضعِ البَسْطة، والمقصورَ في موضعِ القَصْر، وهَجَر الغريبَ الوَحْشيّ، ورَغِبَ عن الهجينِ السُّوقيّ، فلم ينطقْ إلاَّ عن ميراثِ حِكمة، ولم يتكلمْ إلا بكلام قد حُفَّ بالعِصْمة، وشُدَّ بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق. وهذا الكلامُ الذي ألقَى الله المحبةَ عليه وغشَّاه بالقبول، وجَمَعَ له بين المهابةِ والحَلاوة، وبين حُسنِ الإفهامِ وقلةِ عَدَدِ الكلام، وهو مع استغنائِه عن إعادتِهِ وقلةِ حاجةِ السامعِ إلى معاودتِه، لم تسقطْ له كلِمة، ولا زَلَّتْ له قَدَم، ولا بارَتْ له حُجّة، ولم يقم له خَصْم، ولا أفحمَه خطيب، بل بذَّ الخُطَبَ الطوالَ بالكلامِ القَصير، ولا يلتمسُ اسكاتَ الخصم إلاَّ بما يعرفُه الخَصم، ولا يحتجُّ إلا بالصّدق، ولا يطلبُ الفَلَجَ إلاَّ بالحَقّ، ولا يَستعينُ بالخَلاَبة، ولا يستعملُ المُوارَبَة، ولا يَهمِزُ ولا يَلْمِز، لا يُبطِئ ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِبُ ولا يَحْصِر، ثم لم يسمعِ الناسُ بكلامٍ قطّ أعمَّ نفعاً، ولا أصدقَ لفظاً، ولا أعدلَ وَزْناً، ولا

أجملَ مَذْهباً، ولا أكرمَ مَطلباً، ولا أحسنَ موقِعاً، ولا أسهلَ مخرجَاً، ولا أفصحَ عن معناه، ولا أبينَ عن فحواه.. من كلامِهِ صلى الله عليه وسلَّم».

وهو يقولُ في نفسِ الكتاب:

«وأحسنُ الكلامِ ما كانَ قليلُه يُغنيك عن كثيرِه، ومعناه في ظاهرِ لفظِه، وكان الله عزَّ وجلَّ قد ألبسَه من الجَلالة، وغَشَّاه من نورِ الحكمةِ على حَسَبِ نيةِ صاحبِه وتقَوى قائلِه، فإذا كان المعنَى شريفاً واللفظُ بَليغاً، وكانَ صحيحَ الطبعِ بعيداً عن الاستكراه، ومُنزَّهاً عن الاختلال، مَصُوناً عن التكلّف، صَنَعَ في القلب صنيعَ الغيثِ في التربةِ الكريمة».

زِرْيَاب

عَالِم اللّحن والنغم



هُوَ

أبو الحسَن

عَلي

ابن نافع



ظهرَ عليه من علاماتِ الذكاءِ والموهبة. ورحَّب به موسيقيُّ العربِ إبراهيمُ الموْصِلي، ومن بعدِه ابنُه اسحقُ الموصلي، كتلميذٍ نجيبٍ في مدرستِه الموسيقيةِ التي أنشأها في بغداد، للتدرّبِ على العزفِ والغِناء، وراحَ زريابُ يتشرَّبُ فنون أستاذيه في صمتٍ ودَأب.



كان إسحقُ المَوْصلي عالماً موسيقياً ومغنياً مُبدِعاً، ومقرَّباً إلى الخليفةِ هارونَ الرشيد. وقد طلبَ الرشيدُ من إسحق، أن يختارَ من بين تلاميذِه من يتوسَّمُ فيه الموهبةَ والقُدرةَ الفنيّة، والذوقَ السّليم، فوعدَه اسحقُ بإحضارِ أفضلِ تلاميذِه واسمُه زِرياب... أو أبو الحسن عليُّ بنُ نافع.



كان زريابُ من بينِ تلاميذِ إسحق، أقلَّهم كلاماً، وأكثرَهم استيعاباً، وعندما اختارَه إسحقُ للغِنَاءِ والعزفِ أمامَ هارونَ الرشيد، لم يكن يعرفُ القَدْرَ الحقيقيَّ لموهبتِه، أو المدَى الواسعَ لمعارِفه.. فنصحَه إسحقُ بالتدريبِ الطويلِ استعداداً للمثولِ بين يَدَي الخليفة.



أقبلَ إسحقُ على مجلسِ هارون الرشيد، ومِن خلفِه تلميذُه زِرْياب، يتطلعُ إلى فَخَامَةِ البناءِ وجمالِ الأثاثِ وروعةِ المفروشات. وعندما اقْتربا من مجلسِ الخَليفة، تقدَّمَ اسحقُ الموصلِي، ووقفَ زريابُ بعيداً، أشارَ إسحقُ إلى الفتى قائلاً: «ها هو يا مولاي.. تلميذِي زِرياب».



أخذَ الرشيدُ يسألُ زريابَ العديدَ من الأسئلة، يمتحنُ معلوماتِه، ويَتثبَّتُ من معارفِه، فوجدَه فصيحَ المنطق، حاضِرَ البديهة، سريعَ الإجابة، يتكلمُ بثقةٍ ودونَ تَهيُّب. وسأله عن قدرتِه على الغِناءِ فقال: «إن أذِنْت غَنَّيتُك ما لم تسمعْه أُذُنٌ قبلَك». فأحضرَ له الرشيدُ عودَ إسحقَ الموصلّي.



اعْتَذَرَ زريابُ قائلاً: «لي عودي، نَحتُّه بيدي، وأرهفْتُه بإحكامي... ولا أرتضِي غيرَه...». تعجّب الخليفةُ هارونُ الرشيد لكلامِ هذا الفتَى ولثقتِه الشديدةِ بنفسِه، واستَاءَ إسحقُ من تطاولِه أمامَ الخليفة. غيرَ أنَّ الرشيدَ أمرَ بإحضارِ العود.



جاءوا بعودِ زِرْياب، فأَمسكَه الرشيدُ بين يديه، ثم قال متعجّباً: «ما أراهُما إلا واحداً..». فأجابَ زريابُ: «صَدَقْتَ يا مولاي.. ولا يؤدّي النظرُ إلى غيرِ ذلك.. لكنَّ الاختلافَ في نوعِ الخشبِ والأوتار..». ثم انطلقَ زريابُ يعزِفُ ويغنّي:

يــا أيّــهــا الــمــلــكُ الــمــيــمــونُ طــائــره

هــارون راح إلــيــك الــنــاس وابــتــكــروا



استولى الطربُ على الرّشيد، وكانت دهشةُ إسحقَ الموصلِّي أكبرَ من مفاجأة الخليفةِ بموهبةِ زرياب، فقالَ الخليفةُ لإسحق: «لولا أنني أعلمُ أنك لم تكن تدرِي حقيقةَ موهبةِ هذا الفتَى، لأنزلت بك العَقَابَ لإخفائِه عني.. خُذه واعتَنِ به حتى أفرغَ له.. فإن لي فيه نظراً..».



دبَّ الحسدُ في صدرِ إسحق، وخافَ أن يحتلَّ زريابُ مكانتَه عندَ الخليفة. وهو لو كان يعلمُ أن لزريابَ كلَّ هذه الموهبة، ما كان قدَّمَه إلى هارون الرشيد. ولمّا غادرا بلاط الخليفة قال إسحقُ لزرياب: «عَما قليلٍ تسقطُ منزلتي وتَرتقِي أنت فوقي، وهذا ما لا أرضاه حتى لو كنتَ وَلدي..»، وخيَّره بين أن يرحلَ عن العِراقِ كلّه، أو يتلقّى غضبَه وحَرْبَه.

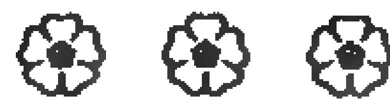


لم يكن أمام زريابَ إلا أن يرحل، فتحرَّكت قافلتُه سراً، تحملُ زوجتَه وأولادَه وبعضَ متاعِه، ولكنْ إلى أين. . فلا بدَّ من السفرِ الى بلدٍ لا يخضعُ لنفوذِ أو سلطةِ الخليفةِ هارون الرشيد، أو العبّاسيين. وهكذا انطلقَ الركْبُ سراً إلى الشامِ ومصرَ حتى وصلَ إلى القيروان التي يحكمُها الأغالبةُ الذين لا يصلُ إليهم نفوذُ الرّشيد.

حريّةُ الصبيِّ الأسود

هو أبو الحسنِ علي بنُ نافع، المعروفُ باسمِ «زِرْياب». عالم الموسيقى العربيّ، الذي اخترعَ الآلاتِ الموسيقيةَ وأضافَ إليها، وابتكرَ الألحانَ ونظرياتِها، فكان نجماً من نجومِ النهضةِ الموسيقيةِ العربية.

تبدأُ حكايةُ زريابَ بدايةً لا تُنْبىءُ بخاتمتِها.. فمن الذي يتصورُ أن ذلك الصبيَّ الأسود، الذي اشتراه الخليفة المهدي، ذلك الصبيَّ المغمورَ الأصلِ المجهولَ النّسب، الذي تجرِي بشأنِه المساومةُ بالبيعِ والشراءِ في الأسواق... من الذي يتصورُ أن صبيّاً مثلَ هذا، سيكونُ في يومٍ من الأيامِ زهرةَ مجالسِ الخلفاءِ والأمراء، يرحّبون به، ويسعون إلى صحبتِه... ولكن، هذه هي حكايتُنا.



لا يعلمُ أحدٌ التاريخَ الدقيقَ لميلادِ زِرياب، فمن الذي يهتمُّ بتسجيلِ هذه الحقيقةِ لفتى من العبيد، لم يَظْهر عليه ما يُميّزُهُ عن غيرِهِ من العبيد. غيرَ أنه من دراسةِ المراحلِ المتقدمةِ من حياتِه،

يَغْلبُ الظنُّ أنه وُلِدَ عام ٧٧٧ م (١٦٠ هـ)، وأنه عند وفاةِ مولاه الخليفةِ المهدي، كان ما يزالُ صبياً لم يتجاوزِ التاسعةَ مِن عمره.

توسَّمَ فِيه الخليفةُ علاماتِ الذكاءِ وفَصَاحَةَ اللسان، فمنحَه حُريّته. وكانت هذه هي الخطوة الأولى في طريقِ المجدِ الذي سارَ عليه زِرياب.

شبَّ زريابُ وترعرعَ في مدينةِ بغداد، التي تفوَّقت على سائرِ المدن، فكانت في ذلك الحينِ زهرةَ المشرق، وجنَّةَ الدنيا. امتلأت جوانبُها بالقصورِ الفاخرةِ والحدائقِ الغنّاءِ والميادينِ الفَسيحة، والدولةُ العباسيةُ في ذلك الحينِ كانت وقد وصلت إلى أوجِ ازدهارِها وعظمتِها. وكانت الحياةُ قَد بلغت شوطاً حضارياً لا شكَّ فيه، بدُورِ العلمِ ومجالسِ العُلماءِ وجلَسات الفنانين، وبالصناعاتِ المتطورةِ والحرفِ الفريدة، وبسيادةِ الترفِ والبَذْخ. حتى قيل بأن الخليفة المتوكل أنفقَ على قصورِه وحدَها ما يزيدُ على ٢٩٤ مليون دِرْهم. ولم يكن هذا شأنَ الخلفاءِ وحدَهم. بل قيلَ إن ما كان يخصَّصُ لأحدِ الوزراءِ من الثلجِ يومياً يبلغُ ألفَ رَطل. كما أن وزيراً آخرَ اشترى في ثلاثةِ أيامٍ ورداً لزينةِ مجلسِه بألفِ دينار.

كان سوقُ الطربِ والغناءِ في هذه الحياةِ المُتْرَفةِ رائجاً. فكان يَجرِي تدريبُ وتعليمُ الجوارِي فنونَ الغِنَاءِ والعزفِ على الآلات، وبعض فنونِ الشعرِ والأدب، حتى تتمَّ بهنَّ زينةُ المجالس. وقد وصلَ الغِنَاءُ على أيدِي الجواري في ذلك العصرِ أبعدَ غايةٍ من التقدّم. وبلغَ من عنايةِ الخلفاءِ بهن، ما قيلَ من أنّ الرشيدَ اقتنى

ألفَ جاريةٍ في قصرِه، لكل مجموعةٍ منهن تخصُّصُها الفنيُّ الذي تتفوَّقُ فيه.

ورغمَ أن زريابَ كان قد كَسَبَ حريتَه، وتخلصَ من قَيْدِ العبودية، فقد بقي في أوائلِ حياتهِ قريباً من قصورِ الخُلفاءِ. لذا اكتسبَ الصبيُّ الناشئُ في ظلِّ تلك الحياة، كلَّ أصولِ الرقةِ والرَّفاهيةِ، وتذوَّقَ أشكالَ الحياةِ الثقافية، وشُغِفَ بالمعرفةِ والفنون.

خيرُ أستاذ

إذا كـان زريـابُ قـد تـأثـرَ كـثـيـراً بـحـيـاةِ بـغـدادَ الـعـلـمـيـةِ والاجتماعية، فلم تكن هذه هي المصادرُ الوحيدةُ لعلمِه وثقافتِه. وقد اتَّفقَ المؤرِّخون على أن المعلمَ الأولَ لزريابَ كان، إبراهيمَ الموصلِّي.

كان إبراهيمُ هو الموسيقيُّ الأولُ في بغداد. وكان الناسُ يُوفِدُون إليه جَوارِيَهم ليتعلّمن الغِنَاء والموسيقى. فكان لا يقتصرُ على تعليمِهن العزفَ والغناءَ بل يَحْرِصُ على استكمالِ ثقافتِهن في فنونِ الأدبِ والرواية.

عندما تقدَّمَ العمرُ بإبراهيمَ الموصلِّي، وأصابَه المرض، تولَّى ابنُه اسحقُ الموصليُّ رسالةَ أبيه، فعُني بتثقيفِ ورعايةِ زرياب. وكان زريابُ يسيرُ في ركابِ أستاذِه، ويتشرَّبُ معارفَه ومعلوماتِه في صمتٍ ودَأْب، وأفادَ من جوِّ المدرسةِ الموسيقيةِ التي أشرفَ عليها أستاذاه.

وقد كانت لاسحقَ الموصلِّي مكانةٌ كبيرةٌ في العلوم والآدابِ أيضاً. فكان عالماً فَقِيهاً وشاعراً وأديباً، ونديماً ظريفاً مسلّياً لا

يستغنِي عنه الخلفاء. وكان إلى جانبِ ذلك كلّه، رَاويةً يحكي أخبارَ القدماءِ ويصححُ الروايات لمن يحكيها. . وقبلَ هذا وذاك، كان مغنياً عارفاً بفنِّ الغِناء، وعازفاً ماهراً، وملحّناً بارعاً، وقد وضعَ اسحقُ للغِناءِ قواعِدَ وأصولاً، وضبَطَ الأوزان، وحددَ المقاماتِ ثم تصرّفَ فيها تصرفاً يكشِفُ عن حسّه العميقِ ومعرفتِه الكبيرة. كما كانت له بعضُ الجهودِ في تدوينِ الموسيقى.

وهكذا تحقّقت لزريابَ فُرصَة الدراسةِ الموسيقيةِ والفنيةِ على يدِ رائدٍ من رُوّادِ الموسيقى العربية، فأفادَ من ذلك كخيرِ ما يستفيدُ التلميذُ من أستاذِه. ومع هذا لم يقتصرْ زريابُ في دراستِهِ على أستاذيه إبراهيمَ وإسحقَ الموصلي، بل كان كالنحلةِ التي لا تتركُ زهرةً استهواها رحيقُها. فإذا كان قد تيسَّرَ لزريابَ أن يدرسَ الموسيقى التقليديةَ المحافظةَ على يدِ إبراهيمَ واسحقَ الموصلي، فهو قد حَرَصَ على متابعةِ محاولاتِ التجديدِ في الموسيقى والغِنَاءِ التي كان يتزعمُها إبراهيمُ بنُ المهديّ، شقيقُ الخليفةِ هارون الرشيد.

مفاجأةٌ حتى لأستاذِه

حوالى عام ٨٠١ م (١٨٥ هـ)، جَرت واقعةٌ كان لها أثرُها الكبيرُ في مستقبلِ حياةِ الفتى الذي كان قد بلغَ الخامسةَ والعشرينَ من عمرِه. كان زريابُ في ذلك الوقتِ قد استوعبَ المعارفَ والفنونَ التي أُتيحت له، في صمتٍ ودونَ إفصاحٍ عما استحالتْ إليه تلك المعارفُ في عقلِه النَّيّر. وغايةُ ما كانَ يلحظُه استاذه إسحق الموصلي، أنه تلميذٌ مجتهدٌ مطيعٌ يُجِيدُ الاستماعَ إلى ما يقالُ له، فلا ينساه، ثم يُفيدُ منه أكبرَ فائدة.

كان إسحقُ الموصليُّ يوماً في حضرةِ الخليفةِ هارون الرشيد، وبعد ان انتهَى من عزفِه وغنائِه، طلبَ الرشيد، على سبيلِ التغييرِ والتنويع، أن يقدِّمَ إليه إسحقُ وجوهاً جديدةً من المغنين، غيرَ أولئك الذين يتردّدون عادةً على مجلسِه. فوقعَ اختيارُ إسحقَ الموصلي على زرياب، وعندما أظهرَ الخليفةُ تشكّكَه في أن يَصدُرَ الفنُّ الرقيقُ من فتى يحملُ مثل ذلك الاسم. أخذَ اسحقُ يتحدثُ عن تفوقِ زرياب، ومقدرتِه، فوافقه الخليفة على شهادته.

في اليوم التالي، كان إسحقُ يَتّجه إلى مجلسِ الخليفة، ومن

خلفِه تلميذُه النجيبُ زرياب. أخذَ الخليفةُ يسألُ زرياب ويمتحنُ معلوماتِهِ ومعارفَه، فوجدَ فيه فصاحةَ المنطقِ وحضورَ البديهةِ وسُرعةَ الإجابة. سألَه الخليفةُ عن قدرتِهِ في الغناءِ فأجابَ في ثقةٍ وشجاعة: «أُحْسِنُ منه ما يُحْسِنُه الناس، وأكثرُ ما أُحسنُه مما لا يُحْسِنونه ولا يَحْسُنُ إلا عندَك، ولا يُدَّخَرُ إلا لك، فإذا أذِنت غنيتكَ ما لمْ تسمعْهُ أُذنٌ قبلَك».

اندهشَ الخليفة من قول هذا الفتى، فأمرَ بإحضارِ العودِ الخاصّ بإسحقِ الموصليِّ ليعزِفَ عليه، فأبى زريابُ قائلاً: «لي عودِي نَحتُّه بيديّ، وأرهفتُه بإحكامي.. ولا أرتضِي غيرَه». زاد اندهاشُ الرشيد، ولكنه أرادَ أن يعرفَ سرَّ الفتى، فأمرَ بإحضارِ عودِ زريابَ، وعندما جيءَ به، راحَ الرشيدُ يتطلعُ في العودِ من كلِّ جانب، ثم قال لزرياب: «ما منعَك أن تستعملَ عودَ استاذِك..»، أجاب زريابُ بشجاعةٍ: «إن كان مولاي يرغبُ في غناءِ أستاذِي غنيتُه بعودِه، وإن كان يرغبُ في غِنَائي فلا بدَّ لي من عودي». فقال الرشيدُ وهو يُنقِّلُ بصرَه بين العُودين: «ما أراهما إلاّ واحداً». أجابَ زريابُ: «صدَقتَ يا مولاي، ولا يؤدِّي النظرُ إلى غيرِ ذلك. ولكنَّ عودي وإن كان في قدر حجمِ عودِه، ومن جنسِ خشبه، فهو يقعُ من وزنِه في الثلثِ أو نحوه، وأوتارِي من حريرٍ لم يُغْسلْ بماءٍ ساخنٍ يُكسبُها أنوثةً ورخَاوَة..»، ومضى زريابُ يعددُ مواصفاتِ عودِه، بطريقةٍ تَكشفُ عن علم دقيقٍ بأصولِ الأصواتِ وتردّدِها، فأُعجبَ الرشيدُ ببراعةِ وصفهِ وأمرَه بالغِناء. فاندفعَ زريابُ يغني:

يـــا أيّـــهـــا الـــمـــلـــك الـــمـــيـــمـــونُ طـــائـــرُه

هـــارون راحَ إلـــيـــك الـــنـــاسُ وابـــتـــكـــروا

فقال الرشيدُ لإسحقَ بعد أن استولَى عليه الطربُ والإعجابُ بزرياب: «لولا أنني أعلمُ من صدقك على كِتْمَانِه إياك لمَا عِنْدَه، وتصديقي لك من أنك لم تسمعْه قبل، لأنزلتُ بك العقوبةَ لتركِك إعلامي بشأنِه، فخذْه إليك واعتنِ به حتى أفرغَ له، فإنَّ لي فيه نظراً».

استمعَ إسحقُ الموصليّ لكلماتِ الرشيدِ صامتاً، ومضى مع زريابَ وهو يدبّرُ أمراً، ويُعْمِلُ فيه فكراً.

لا بدَّ من الرحيل

كانت تلك الحادثةُ سبباً في حِقدِ اسحقَ الموصليِّ على زِرياب، فقد أغضبَه أنّ تلميذَه لم يكشِفْ عن مواهبِه هذه أثناءَ الدروس، فأحرجَه أمامَ الخليفة. كما أنه ندمَ على اصطحَابِ زرياب، دون غيرِه من التلاميذ، إلى مجلسِ الخليفة، وما ترتَّب على ذلك من إعجابِ الخليفةِ به ذلك الإعجابَ الشديد، الذي قد يُضعفُ مكانتَه هو عند الخليفة.

ما إن مرَّت عدةُ أيام، حتى استدعَى إسحقُ زريابَ وقال له: «إن الحسدَ أقدمُ الأَدْواء، والدنيا فَتَّانة، والشّركةَ في الصناعةِ عداوَة، ولا حيلةَ فِي حسمِها. وقد مَكَرْتَ بي فيما انْطويت عليه من إجادتِكَ وعلوِّ طبقتِك، وقصدتُ منفعتَك، فإذا أنا قد أتيتُ نفسِي من مَكْمَنِها بإدْنائِك، وعن قليلٍ تسقطُ منزلتي وترتقِي أنت فَوقي، وهذا ما لا أصاحُبك عليه، ولو أنك ولدي. ولولا رَعْيِي لذمةِ تربيتِك، لما قَدَّمتُ شيئاً على أن أُذهبَ نفسَك، وليكن في ذلك ما كان. فتخيَّرْ في اثنتين لا بدَّ لك منهما، إمّا أن تذهبَ عني إلى الأرضِ العريضة، لا أسمعُ لك خبراً بعد أن تُعطِيني على ذلك

الأيْمَانَ الموثَّقة، وأُنهضُك لذلك بما أردتَ من مالٍ وغيرِه، وإما أن تقيمَ على كُرْهي ورغمِي مُسْتهدِفاً لسِهامي، فإنِّي لا أُبقِي عليك، ولا أدعُ اغْتيالك، باذلاً في ذلك بَدني ومالي. فاقضِ قضاءَك».

هكذا تدُبُّ الغِيرةُ في قلبِ إسحقَ الموصلي، ويَشيعُ الحسدُ في صدره، رغمَ أنه موسيقيّ بغداد الأولُ ونجمُ الغِناء، ونديمُ الخلفاء. أغضبَه كتمانُ تلميذِه الأسودِ لمدَى موهبتِه، وآلَمه أن يتخفَّى وينطويَ على نفسِه، فيبتكرَ ويخترعَ في صناعةِ العودِ وفي تدبيرِ وتجهيزِ الأوتار، ويَبْرَع في ابتكارِ الألحانِ واختيارِ الأشعارِ المناسبة، ثم يفاجئه بهذا كلِّه في مجلسِ الرّشيد.

ما كان من الممكنِ أن يبقَى زريابُ بعد ذلك في بغداد.. وصار لِزَاماً عليه أن يفكّرَ في البلدِ الذي سينتقلُ إليه مع أُسرتِه سرّاً دون أن يعلمَ الخليفة. وينبغِي أن يكونَ الرحيلُ إلى بلد ليس للرشيدِ ولا لأعوانِه سلطانٌ عليه. لم يكن أمامَه سوى أن يسافرَ إلى «القَيْروان»، عاصمةِ المغربِ الأوسط، والتي استقلَّ ملوكُها الأغالبةُ عن الدولةِ العباسية. أو أن يَمضِيَ إلى بلادِ الأندلس، حيث الدولةُ التي أسسَها عبدُ الرحمنِ بنُ معاوية، عندما هربَ من المشرق، في أعقابِ انتصارِ العباسيين على الأمويين.

بدأ زريابُ رحلتَه سرّاً من بغداد، مارّاً بالشام ومصر، فاجتازَ الصّحارى، ومرَّ بالبلدان، ولاقَى هو وزوجتُه وأولادُه ألواناً من المصاعبِ والمشاقّ، حتى عَبَر بُرقَةَ وليبيا، ووصلَ إلى مدينةِ «القَيْروان». وطَوالَ هذه الرِحلة، كان زريابُ يفكِّرُ فيما مرَّ به من أحداثٍ متلاحقة... وفي موقفِ استاذِه اسحق، الذي بعدَ أن رفعَه

إلى مجلسِ الخليفة، نفاه من بلدهِ ليواجهَ المخاطر، والمصيرَ المظلم.

لم يعلمْ زرياب، أنه وهو يفكّرُ في هذا، كان الخليفةُ قد استدعَى إسحق، وطلبَ منه الاستماعَ مرةً ثانيةً إلى صوتِ ذلك الفتى الأسمرِ الموهوب. فأسرعَ إسحقُ يقول للخليفة: «ومن لي به يا أميرَ المؤمنين، ذلك غلامٌ مجنونٌ يزعُمُ أن الجنَّ تكلمُه، وتطارحُه ما يَزْهَى به من غنائِه، فما يرى في الدنّيا ما يَعْدِلُه..»، ثم قال إن زريابَ عندما لم يحظَ بهديةٍ أو جائزةٍ ماليةٍ من الرشيد، اغتاظَ ورحلَ عن البلادِ غاضباً. فأسفَ الرشيد، وصدَّق أقوالَ الموصلي، ثم قال: «على ما كان به، فقد فاتَنا منه سرورٌ كبير».

غَضبَةُ زيادِ اللَّه

وصلَ الركْبُ إلى مدينةِ القيروان، فاستراحت نفسُ زرياب، واطمأنَّ بالُه. ووجدَ القيروان تقعُ جنوبيَّ مدينةِ تونسَ على مقربةٍ من ساحلِ البحرِ الأبيضِ المتوسّط، أسسَها عُقبةُ بنُ نافع في عهدِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ لتكونَ العاصمةَ الجديدةَ لولايةِ أفريقيا الإسلامية، وقاعدةً تتجمعُ فيها جيوشُ العرب، لفتحِ المغرب.

عندما وصلَ زريابُ إلى القيروان، كانت في يدِ إبراهيمَ بنِ الأغلب، مؤسسِ دولة الأغالبةِ في شماليّ افريقيا، التي كان لها استقلالُها عن الدولة العباسية، وعن سلطانِ الخليفةِ العباسيّ.

استُقبلَ زريابُ في القيروانِ خيرَ استقبال، وذاعَ صيتُه في جميعِ ولايةِ افريقيا، ولم تنقضِ السنواتُ الأولى على إقامتِه بالقيروان، حتى أشاعَ نهضةً غنائيةً فنيةً في البلاد. فمال أهلُ البلادِ إلى الاشتغالِ بالموسيقى والغناء، حتى كان أحدُ أحياءِ اللهوِ والفنِّ بالمدينةِ يُطلقُ عليه «الحيُّ الزِّريابي».

عاشَ زريابُ مع أهلِه في القيروان حياةً ناعمةً مُطْمئنّة، وأصبحت له مكانتُه عندَ ملكِ البلادِ زيادِ الله، وهو ابنُ إبراهيم بنِ الأغلبِ رأسِ دولةِ الأغالبة. وكان زيادُ اللهِ أفضلَ أبناءِ إبراهيم

وأفصحَهم لساناً وأكثرَهم بياناً. فتدعَّمت الصلةُ بين الملكِ وزرياب، لأنَّ الملكَ زيادَ اللهِ كان يقولُ الشعرَ ويتذوقُ الألحانَ والغِناء.

وذات يومِ كان زريابُ في مجلسِ الملكِ فغنَّى أُغنيةً يمتدحُ فيها السوادَ عن شعرِ لعنترةَ بنِ شدادَ يقولُ فيه:

فإنْ تكنْ أمِّي غُرابيةً
مِن ابْناءِ حامٍ بها عِبْتَني
فإنِّي لطيفٌ ببيضِ الظُّبَى
وسُمرِ العوالِي إذا جئتَني
ولولا فِرارُك يومَ الوغى
لقُدتُك في الحربِ أو قُدتَني

تغنَّى زريابُ بهذه الأبيات، متفاخراً بلونِه الأسودِ أمامَ الملك، فغضبَ غضباً شديداً، واعتبرَ قولَ زريابَ وغناءَه تطاولاً ووقاحةً لا تُحتملُ في مجلسِه. فقد جرى العُرفُ أن يَمتدحَ الشاعرُ والمغنّي الخليفةَ أو الملكَ أو الأمير، لا أن يمتدحَ نفسه. فأمر زيادُ اللهِ بضربِ زريابَ وإبعاده عن البلاد، وقال له: إن وَجدتك في مكانٍ ما من بلادي بعدَ ثلاثة أيام، ضربتُ عنقَك.

ندمَ زريابُ أشدَّ الندمِ على ما بدرَ منه، وأخذَ يفكرُ في مكانٍ يذهبُ إليه، قبلَ أن تنتهيَ هذه المهلة. وتشاء الظروفُ الطّيبة، أن يَحضرَ في ذلك الوقتِ بالتحديدِ إلى القيروان منصورٌ المُغنّي مَبعوثاً إلى زريابَ من خليفةِ الأندلس، يَدعوه لزيارةِ قُرطبة. فأسرعَ زريابُ يجمعُ مَتاعَه، ويجهّزُ نفسَه وعائلتَه، حتى يَمْضِي في أقربِ فرصةٍ إلى بلادِ الأندلس، هرباً من تهديدِ الملكِ زيادِ الله.

استقبالُ الفاتحين

كانت الأندلسُ منذُ الفتحِ الإسلاميِّ ولايةً تابعةً للخلافةِ الأمويةِ في دِمشق، وظلَّ الحالُ كذلك حتى سَقطت دولةُ بني أمية، وتعقَّبَهم الخليفةُ العباسُ السّفاحُ بالقتلِ والتشريد، غيرَ أن عبدَ الرحمنِ بنَ معاويةَ تمكَّنَ من الهربِ إلى الأندلس، وجعَلَ قرطبةَ عاصمةً لملكِه. وأصبحَ اسمُه بعد دخولِ الأندلس «عبدَ الرحمنِ الدّاخل»، كما أُطلقَ عليه لقَبُ «صَقْر قريش». واستطاعَ أن يؤسسَ دولةً قويةً عُرفت باسم «الدولةِ الأمويةِ بالأندلس».

في عام ٨٢١ م (٢٠٦ هـ)، رحلَ زريابُ من مدينةِ القيروان في صحبةِ منصورِ المغنّي رسولِ الخليفةِ الحَكَم بنِ هِشامٍ، متّجهاً إلى الأندلس. سارَ برّاً حتى وصلَ إلى ميناءِ (سويتا) في شماليّ بلادِ المغرب، وعبَرَ مضيقَ جبلِ طارق. وما إن وَطأت قدمَاه أرضَ الجزيرةِ الخضراءِ حتى بلغَه نبأُ وفاةِ الحكمِ بنِ هشام، فأصابهُ حزنٌ شديد، واغتم لسوءِ حظِّه، وهمَّ بالرجوعِ رغمَ علمِه بما سيعانيه هو وأسرتُه من محَنٍ إذا هو بقيَ في شماليّ أفريقية.

لكنّ المغنّي منصوراً، أقنعَه بمواصلةِ الرحلةِ للقاءِ عبدِ

الرحمنِ بنِ الحكمِ الذي تولَّى الخلافةَ بعدَ أبيه. وكتبَ إليه منصورٌ يخبرُه بوصولِ زريابَ إلى الأندلس. فجاءَ خطابُ الخليفةِ وفيه يذكُرُ شوقَه للقاءِ زريابَ وسرورَه بمقدمِه إلى أرضِ الأندلس. وفي نفسِ الوقتِ كتبَ إلى جميعِ نُوّابِه في المدن التي سيمرُّ فيها زرياب، يُوصيهم بإكرامِه، وأنْ يُحْسنوا استقبالَه، ويُسهّلوا تَنقّله من بلدٍ إلى بلدٍ بكلِّ الاحترامِ الواجبِ حتى يصلَ إلى قُرطبة.

قبل أن يدخلَ زريابُ إلى مدينةِ قرطبة، كان الخليفةُ عبدُ الرحمنِ بنُ الحكم قد خرجَ بنفسِه لاستقباله والترحيبِ به، فسَعِدَ زريابُ بذلك غايةَ السّعادة، وانشرحَ قلبُه بهذه البلادِ التي فَتَحَت له ذراعيها بكلِّ هذا الشوق والترحيب. واختارَ الخليفةُ لزريابَ داراً من أحسنِ الدورِ التي تهيأت فيها كلُّ وسائلِ الراحة.

كانت قرطبةُ أعظمَ بلادِ الأندلس، فلم يكن لها شَبيهٌ في كثرةِ السكانِ وسعَةِ الرُّقعة، وكانت تبتعدُ عن البحرِ مسيرةَ خمسةِ أيام، وتُعتبرُ أعلى مركزٍ للعلومِ والفنون. وقد كان وصولُ زريابَ إلى قرطبةَ في أعقابِ خلافةِ الحكمِ بن هشامٍ الذي كان فَنّاناً بطبعِه، شاعراً بسليقتِه، يحبُّ الموسيقى والشعر. وكان إلى جانبِ ذلك، حاكماً قوياً، أحسن تنظيمَ البلاد، فاطمأنّت النفوس، وتهيأَ الجوُّ لنهضةٍ ثقافية.

بعدَ ثلاثةِ أيام من وصولِ زريابَ إلى الأندلس، استدعاه الخليفةُ إلى مجلسِه، وكتبَ له راتباً شهريّاً قدرُه ٢٠٠ دينار، بالإضافةِ إلى راتبٍ آخرَ لكلِ ولدٍ من أولادِه الأربعةِ الكبار. وأيضاً بالإضافةِ إلى منحٍ سنويةٍ تبلغُ ثلاثةَ آلاف دينار، وهذا غيرُ الهدايا

العينيةِ من المأكل والملْبَس.

اطمأنَّ زريابُ إلى حياتِه الجديدة، فانطلقَ يعرضُ على الخليفةِ ضُروباً من فنِّه، فعزفَ وغنّى، مما جعلَ الخليفةَ يزدادُ تعلقاً به، وحبّاً له، وتفضيلاً له على جميعِ المغنين. ولم يقتصرْ زريابُ على الغناءِ والعزفِ في مجلسِ الخليفة، بل راحَ يمتّعُه بذكرِ أخبارِ الملوك، وسِيَرِ الخلفاء، وحكاياتِ الناسِ في كلِّ مكانٍ. فزادَ الخليفةُ في تكريمِه واختصه بتناولِ الطعامِ على مائدتِه. وبالغَ في الاعتزازِ به، حتى فتحَ له باباً خاصّاً يستدعيه منه متى أرادَ سماعَه أو الحديثَ معه.

استاذُ الفنّ بالأندلس

ما كادَ زريابُ يستقرُّ في قُرطبة، ويعيشُ فيها حياةً مطمئنةً هادئة، حتى وجَّه عنايتَه لتطويرِ واستحداثِ مُختلِفِ الآلاتِ الموسيقية، فنقلَ إلى الأندلس كلَّ ما سبَقَت معرفتُه من آلاتٍ في بلادِ المشرقِ العربيّ، ثم أخذَ يتفنَّنُ فيها ويبتكرُ حتى توافرت للأندلسِ ثروةٌ من تلك الآلاتِ لم تعرفْها بلدٌ قبلَه.

واستفادَ زريابُ من حياتِهِ السابقةِ مع إسحقَ الموصليِّ وأبيه إبراهيمَ الموصلي، فأنشأَ مدرسةً موسيقيةً بالأندلس، وابتكرَ لها طريقةً جديدةً في تعليمِ الغناءِ ظلّت مَثَلاً يُحتذَى في الشرقِ والغربِ حتى العصور الحديثة. كان المُتَّبَعُ في تلقينِ الألحانِ قبلَ زرياب، أن يكررَ المعلمُ اللحنَ لطلابهِ حتى يحفظوه. فاستعملَ زريابُ طريقةً جديدةً في تلقينِ الألحان لتلاميذهِ، تتضمَّنُ ثلاث مراحل: في المرحلةِ الأولى يُعلمُهم الإيقاعَ في قراءةِ شعرِ الأغنيةِ فيضربُ التلميذُ على الدُّفِ حتى يُتقنَ زمنَ الإيقاعِ وحركاتِه. وفي المرحلة الثانية يدرِّبُهم على اللحنِ الأساسي في شكلِه البسيط، دون تعقيد. وفي المرحلة الثالثةِ والأخيرة، يُعلّمُهم ترديدَ الصوت وزخرفةَ

الغِناء، وكيفيةَ التعبيرِ عن المعاني بالصَّوت.

وكان في امتحانِه لتلاميذِه الجدد، يلجأُ إلى أسلوبٍ علميٍّ من ابتكارِه هو. يجلسُ التلميذُ على كرسيٍّ صغير، ثم يطلبُ منه أن يقول «آه..»، ويرددُها ممدودةً على جميعِ درَجات السلَّمِ الموسيقيّ، حتى يتعرفَ على خامةِ الصوت تعرّفاً كاملاً.

وزرياب، هو أولُ من فكَّر في تحقيقِ ما نعرفُه اليومَ باسمِ التبادلِ الثقافي، وتبادلِ البِعْثاتِ الثقافية. فقد أرسلَ في طلبِ مجموعةٍ من المغنياتِ اللائي جَرَى اختبارُهن في مواسمِ الحجِّ وتخرَّجن على أيدِي أعلامِ الغِناء في الحجازِ ودمشقَ وبغداد. وعندما وصَلَت المغنّياتُ من «المدينةِ المنوَّرة»، ابتنَى الخليفةُ لهن داراً خاصةً سُمّيت «دارَ المَدَنيَّات». فكانت أولَ معهدٍ للموسيقى بالأندلس. وكان زريابُ هو عميدُ هذا المعهد، واتخذَ من أبنائِه وبناتِه وجواريه أساتذةً لمساعدتِه على تطويرِ فنِّ هؤلاء المغنّيَاتِ المدنيّات.

وكان منهجُ الدراسةِ في هذا المعهدِ يتضمّنُ تعليمَ مختلفِ أنواعِ العزفِ والغناءِ والتلحينِ والشعرِ والرقص. مما كان له أكبرُ الأثرِ في النهوضِ بالموسيقى والشعرِ في بلادِ الأندلس، بل وفي الكثيرِ من بلادِ أوروبا.

وهكذا، ما إن مَضى بعضُ الوقت، حتى أصبحَ بالأندلسِ عامّة، وبقرطبةَ خاصةً، من مجالسِ الغناءِ والطربِ ما لا يقلُّ عظَمةً وفخامةً عن مجالسِ بغداد. ويقال إن أحدَ هذه المجالسِ الأندلسية، اشتركَ فيها مائتان من المغنّين والمغنّيات، يضربون

بمختلفِ الآلات، من عيدانٍ وطنابيرَ ومَزامير.

وتحوَّل بَلاطُ عبدِ الرحمنِ بنِ الحكم من الخُشونةِ إلى التَّرف، بفضلِ توجيهِ زرياب، وبفضلِ ما أشاعَه من فنونِ الذوق. حتى أُطلقَ على زريابَ لقب «فيصل الأناقةِ فِي بلاطِ عبدِ الرَّحمن».

رائدُ الذوقِ والمدنيّة

لم يكن أثرُ زريابَ قاصراً على تطويرِ الموسيقَى والغناءِ بالأندلس، ولم تكن الفنونُ الموسيقيةُ هي المجالُ الوحيدُ الذي أبدعَ فيه وأضاف، لقد كان زريابُ عالماً بالنجوم، وتقويمِ البلدَانِ وطبائعِها ومُناخِها، وحالِ شعوبِها. كما كان زريابُ رسولَ حضارةٍ ومدنيةٍ بالمعنى الكاملِ لهذه الكلمة. حتى اتخذَه ملوكُ الأندلسِ وأمراؤُها وأشرافُها قُدوةً في تصرفِه وملْبسِه وعاداته.

كان لزريابَ ذوقُه الخاصُّ في الملابس، وقد علَّمَ أهلَ الأندلسِ فنَّ اختيارِ الثيابِ المناسبةِ لكلِّ فصلٍ من فصولِ السنة، وفقاً لحالةِ الجوّ. فكان يرتدِي الأقمشةَ الخفيفةَ ذاتَ الألوانِ الزاهيةِ الجميلةِ في فصلِ الربيع، والأثوابَ البيضاءَ الفضفاضة صَيفاً، ومعاطفَ الفِراءِ وأغطيةَ الرأسِ شِتاء.

كما كان له ذوقُه الخاصُّ في تنسيقِ الموائد، واستخدامِ الأكوابِ المصنوعةِ من الزجاجِ الرقيقِ بدلاً من الأكوابِ المعدنية. وقد أدخلَ زرياب إلى الأندلس، تزيينَ المكانِ بأُصصِ الأزهار، التي كانت تُصنعُ في كثيرٍ من الأحيانِ من الفضةِ والذّهب. بل إنه

دلَّ مُجتمعَ قرطبةَ على كثيرٍ من أصنافِ الطعامِ المستحَبّة، ويقال إنه ابتكرَ من بينِ ما ابتكرَ نوعاً من الحَلْوى يسمَّى (الزَّلابِيَة)، وإن الكلمةَ عبارةٌ عن تحريفِ للاسمِ الأصلي وهو (زِرْيابيّة)، نسبةً إليه.

وحين دخلَ زريابُ الأندلس، كان جميعُ أهلِها يُرسِلون الشعرَ مفروقاً وسْطَ الجبين، هابطاً على الحاجبين والصُّدْغين، وكانوا في هذا سواءً، والرجالُ منهم والنساء. فلما رأوا زريابَ يمشّطُ شعرَه، ويَلُمُّه وينظِّمه ويَصُفُّه، ساروا على مِنوالِه وعلى منوالِ أهلِه.

وابتكرَ زريابُ لأهلِ الأندلسِ أنواعاً من الفِرَاشِ الليّن، بدلاً من ملاحفِ الكَتَّانِ التي كانوا يستخدمونها. كما علَّمهم تغطيةَ الموائدِ بأغطيةٍ من الجلدِ قبلَ وضعِ الطّعامِ عليها، حتى يَسْهُلَ تنظيفَ هذه الأغطيةِ مما يَعْلَقُ بها من الطعام. بل بلغَ به أنْ علّمَهم قواعدَ النظافةِ والاستحمام، فأنشأَ الحَمّامَ الذي عُرِفَ باسم «حَمَّامِ زرياب»، والذي يُعتبرُ اعجوبةَ قرطبة، من حيثُ البناءُ الفَخم، وما يتميزُ به من عِمَارةٍ جميلة.

انتصارٌ على المتآمرين

هكذا تألَّقَ نجمُ زريابَ في بلاطِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحَكَم، وشاعَ صيتُه في كلِّ أنحاءِ الأندلس، وتغنَّى الناسُ بمواهبِه المتعددة، فكان من الطبيعيِّ أن يتحرَّك حسادُه ويَنْشطَ الحاقِدون عليه. وكأنما كُتِبَ على زريابَ أن يلقَى المتاعبَ والمصاعِبَ من الحاسدين، منذ البداية بمجلس الرشيد، إلى أن بلغَ أوج مجدِه في بلاطِ عبدِ الرحمن بنِ الحكم.

بل إنه، وهو في الأندلس، كان لا يَسْلَم من أَلْسنةِ الحاسدين في المشرق العربي، فَيَحْكِي عَلَوِيّة، وهو من أعلامِ الغناءِ في بغدادَ هذه الرواية. يقول:

كنت مع المأمونِ لمّا قَدِمَ الشام، فدخلنا دمشق، وجعلنا نطوفُ فيها على أماكنِ بني أمية. فدخلنا قَصراً مفروشاً بالرُّخامِ الأخضر، وفيه بركةٌ يدخُلها الماءُ ويخرجُ منها فيسقِي بستاناً. وفي القصرِ من الأطيارِ ما يغْنِي صوتُه عن العودِ والمزمار. فاستحسنَ المأمونُ ما رأى، فدعا بالطعام، فأكلنا وشَربنا. ثم قال لي: «غنِّ بأطيبِ صوتٍ وأطربِه، فلمْ يَمُرَّ على خاطِري غيرُ هذا الصوت:

لـــو كـــانَ حـــولِـــي بـــنـــي أمـــيـــةَ لـــم

يـــنـــطـــقْ رجـــالٌ أراهُـــم نَـــطـــقـــوا

فنظرَ إليَّ مُغْضَباً وقال: عليك لعنةُ اللهِ وعلى بني أمية. فعلمت أنني أخطأت. فجعلت اعتذرُ من هفوتي، وقلت: «يا أميرَ المؤمنين، أتلومُني أن أذكرَ مواليَ بني أمية، وهذا زريابُ مولاك عندَهم بالأندلس، يركبُ في أكثرَ مِن مائةِ مملوك، وفي مُلكِه ثلثُمائةِ ألفِ دينارٍ دونَ الضِّياع، وأنا عندكم أموتُ جوعاً»، فغضبَ عليه المأمونُ نحوَ شهر، ثمّ رضيَ بعدَه عنه.

إذا كان هذا حالَ المنافسين البعيدين، فما بالُك بمن يضمُّهم بلاطُ الخليفةِ عبدِ الرحمنِ في قرطبة.

كان طبيعياً بعدَ مَقْدَم زريابَ إلى الأندلس، وبلوغِه هذا القدر من النّجاح، أن يَدُبَّ الحِقدُ في نفوسِ من كانوا يتمتَّعون بمكانةٍ قبلَ وصولِه، وفي مقدمةِ هؤلاءِ الخُصوم، يَحْيَى بنُ حَكَم، الذي كان يُعرفُ باسم «الغَزَال». وكان قبلَ مجيءِ زريابَ إلى الأندلس، شاعرَ البلاطِ المقرَّبَ إلى الخلفاءِ في قرطبة. كان يحيى شاعراً جيداً ومُحدّثاً لبِقاً وأديباً ممتازاً، وكان الخليفةُ عبدُ الرحمنِ يرسلُه سفيراً عنه إلى الملوك، ونظراً لما يتمتعُ به من لباقةٍ في الحديث، وحسنٍ في الصورة، أُلصقَ به لقبُ (الغزال).

وكلّما ارتفعت مكانةُ زرياب، تصاعدَ حِقدُ يحيى عليه، حتى تزعَّمَ حركةً داخلَ البلاطِ لحربِ زرياب، وبالغَ في الأمرِ فكان يهجو زريابَ بشعرٍ مُقذعٍ جارح. ولما بلغَ الخليفةَ ذلك الهجاءُ المقذع، غضبَ على يحيى غضباً شديداً، ثم أمرَ بنفيهِ من

الأندلس. فاضطُرَّ إلى السفر، واختارَ أن يسافرَ إلى بغدادَ، لعلَّه يحظى هناك ببعضِ مكانتِه التي فقدَها في الأندلس.

وبرحيلِ الغزال، أو يحيَى بنِ حكم، وبالموقفِ الحاسمِ الذي اتخذَه الخليفة، تراجَعَ حسادُ زريابَ وتوقفوا عن مكائدِهم. وهكذا أتيحَ لزريابَ وهو في أوجِ حياتِه أن ينتصرَ على حسادِه، وينتقمَ لِمَا فعل به الحسدُ والحسّادُ في بدايةِ حياتِه.

وفي قرطبة، كان لزريابَ الكثيرُ من التلاميذ الذين اشتُهُروا في حياتِه ومن بعدِه. فكانت له أربعُ تلميذاتٍ من الجواري المشْرقيّات اللائي جَلَبَهُنَّ من «المدينة المنورة»، بلغنَ بفضلِ تعليمِه غايةَ النجاح، هنَّ: فَضْل، وعَلَم، وقَلَم، وقَمَر. كما اشتهرت من تلميذاته جاريةٌ تسمى مَنْفَعة، وأخرى تسمَّى مَصابيح.



استطاعَ زريابُ أن يقهرَ المصاعب، ويجتازَ المكائد، ويتغلبَ على حسدِ الحسّاد، في بغدادَ والقيروان وقُرطبة. فشقَّ لنفسِه طريقَ المجد، واخترعَ للموسيقى العديدَ من الآلات، وابتكرَ لها الجيدَ من الألحان، ووضعَ العديد من النظرياتِ الموسيقية، وجدَّد في أساليبِ التعليمِ الموسيقي، وكان رائداً للمدنيّةِ والحضارةِ في الأندلس.

وقدتُوفّي زرياب، أو أبو الحسنِ عليُّ بنُ نافعٍ حوالى عام ٨٥٢ م (٢٣٨ هـ)، مع انتهاءِ حكمِ الخليفةِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحكم.

إنجازاتُه

إذا كان زريابُ قد خلّفَ من التراثِ الموسيقيّ أكثرَ من عَشَرةِ آلافِ لحن، وتركَ من الآثارِ الفنية ما أضاءَ للموسيقى العربية طريقَ التطور، فقد كانت لزرياب، بالإضافة إلى هذا، عدةُ انجازات أخرى.

في الآلات الموسيقية

لم تقفْ مواهبُ زريابَ عند حدِّ إجادةِ الغناءِ، والمهارةِ في العزفِ، بل تخطّت ذلك إلى إختراعِ وابتكارِ وتطويرِ الكثيرِ من الآلاتِ الموسيقية. فهو الذي أضافَ الوترَ الخامسَ للعود، أضافَهُ في وسطِ الأوتار، وطلاه باللونِ الأحمرِ وأسماه «الوتر الأوسط الدّمويّ». كما ابتكر ريشةَ العود. وكانوا من قبله يستعملون قِطعةً من الخشب.

واستطاع زريابُ أن يُغْنيَ الحركةَ الموسيقيةَ بالأندلسِ بعشراتِ الآلاتِ الموسيقية، فأصبحت لديهم ثَروةٌ من الآلاتِ الوتَرية، وآلاتِ النفخ، وآلاتِ الإيقاع. وانتقل الكثيرُ من هذه الآلاتِ إلى أوروبا.

في التعليمِ الموسيقيّ

وضع أُسسَ التعليمِ الموسيقيّ الحديثة، وذلك بالتدرجِ في تعليمِ اللحن، من الإيقاعِ إلى اللحنِ البسيط إلى أساليبِ الزَّخرفةِ والتعبير عن العواطفِ والأحاسيس.

وهو الذي ابتكرَ طرقَ قياسِ إمكانياتِ الصوتِ عند التلميذِ الجديدِ حتى يعرفَ الأستاذُ مدَى موهبتِه، وقَدْرَ صوتِه. وكان إذا وجد صوتَ التليمذِ ليّناً رخوَاً، شدَّ على بطنِه شالَ العِمامةِ حتى يَقْوَى صوتُه، وإذا كان لا يستطيعُ أن يفتحَ فَمه إلا بقدرٍ لعَيب خَلقيٍّ في تكوين فكَّيه، فرضَ عليهِ أن يُدخلَ قطعةَ خشبٍ عرضُها ثَلاثُ أصابع، ينامُ بها طوالَ اللّيل.

كما وضعَ نظاماً لتتابعِ الغناء: النشيد، ثم الشَّدو، ثم البَسيط، ثم الإهْزاج.

في الموشَّحاتِ والأَزجال

كان زريابُ مجدِّداً في تأليفِ الموسيقى، يستفيدُ من التقاليد، ويضيفُ إليها من عنده ما يجعلُها مناسبةً لروحِ العصر. وكان تجديدُه الموسيقيّ، بحاجةٍ إلى خَلقِ ألوانٍ جديدةٍ من الشعرُ تسايرُ هذا التطور. وقد تمَّ له ذلك، فكان اختراعُ الموشَّحاتِ والزَّجل، استجابةً لتجديدهِ الموسيقي.

أثرُه على أوروبا

عقِبَ النهضةِ الحضاريةِ والمدنيةِ التي سادت الأندلس، والتي كان لزريابَ دورُه فيها، اعتادت أوروبا أن ترسلَ البعثاتِ إلى الأندلس، لاكتسابِ بعضِ جوانبِ تلك الحضارةِ الراقية. فنرى الملكَ جورج الثاني، ملكَ انجلترا، يرسلُ بعثةً من بناتِ الأشرافِ وعلى رأسِهنَّ الأميرةُ (دوبانت)، ابنةُ أخيه، إلى خليفةِ الأندلس ويقول: «أردنا لأبنائِنا اقتباسَ نماذجِ هذه الفضائل، لتكونَ بدايةً حسنةً في اقتفاءِ أثرِكم، لنشرِ نورِ العلمِ في بلادِنا التي يحيطُ بها الجهلُ من أركانِها الأربعة».

وقد أفردت الباحثةُ الألمانيةُ دكتورة سيجريد هونكه فصلاً في كتابها «شمسُ اللهِ على الغرب ـ فضلُ العربِ على أوروبا»، خَصَّصته للكلامِ عن زريابَ فجاء فيه: «وبينما نجدُ الموسيقيين الأوروبيين يعتمدون في ضبطِ الآلاتِ الوترية على الأذن، نجد طالب الموسيقى في مدرسة زرياب، يعلِّمُ العزفَ بالعَفْقِ على دَساتينَ وُضِعَت على رقبةِ العودِ والجيتار، قد قِيست عليها المسافاتُ الصوتيةُ قياساً دقيقاً».

ويقول الدكتور كورت زاكس، الأستاذُ الأولُ في جامعةِ برلين لتاريخِ الآلاتِ الموسيقية «من الثابتِ أن جميعَ آلاتنا الموسيقية مصدرُها الشّرق، وقد انتقلت منه إلى أوروبا بأكثرَ من طريقة»، ثم يتحدثُ عن آلةٍ موسيقيةٍ اسمُها (الشقير) «وتُعتبرُ هذه الآلةُ إحدى الحَلَقاتِ الأولى التي تطوَّرت منها آلةُ البيانو. وبما أن هذه التسمية ليس لها نظير في المشرق العربي، فالمعتقدُ أنها إحدى مبتكراتِ زريابَ في الأندلس».

الكواكبي

المصلح العربي، وعالم الاجتماع



هُوَ عبد الرحمن

ابن أحمد

الكواكبي



كان والي حلبَ يسمَّى عارف باشا، لكنّ أهلَ حلب أطلقوا عليه لقب «عارف صحيفة».. لأنه كان يُلْزِمُ أعضاءَ مجلسِ الولايةِ وكبارَ موظفيها كلَّ أسبوع، بأن يُحضرَ له كلُّ واحدٍ منهم صنفَ طعام، بحيث تتجمّعُ الصِّحافُ في متنزّه البلدية.



وكان ذلك الوالي مُرْتَشياً فاسداً،
فتصدّى له الكواكبيّ، تحدّثَ عن تصرفاتِهِ
في صُحفِ الآستانةِ وبيروت، وندّد بفسادِهِ
وأشارَ بعدَم صلاحِه، فأضمرَ له الوالي شراً،
وصمّم على انتهازِ الفرصةِ للانتقامِ منه.



وعندما كان قنصلُ ايطاليا بحلبَ يمشي في أحدِ الأحياءِ قريباً من سكنِ الكواكبي، وقعَ عليه حجرٌ فأصابَه، فأرسلَ إلى الوالي تقريراً بذلك، يطلبُ البحثَ عن الفاعل، وإيقاعَ العقوبةِ المناسبةِ عليه.



أراد الوالي أن ينتهز هذه الفرصةَ للانتقام من الكواكبي، فاستدعى بعض جواسيسه، وأوعز إليهم أن يرفعوا إليه تقريراً يقولون فيه إن الكواكبيّ منضمٌّ إلى عصابةٍ أرمنية، وإنه أغرى بعضَ الناسِ بضرب القنصل لإحداث فتنةٍ بين الأرمنِ والمسلمين.



ثم أمرَ الوالي رئيسَ الشرطةِ بالذَّهابِ إلى منزلِ الكواكبي واقتحامِه أثناءَ غيبتِه عن البيت، ثم تفتيشِ مكتبِه وفحصِ أوراقِه، للبحثِ عما يؤيّدُ اتهامَ الكواكبي، ويُثبتُ عليه التهمة.



وقام أحدُ أتباعِ رئيسِ الشرطةِ بدسِّ ورقةٍ مزوَّرةٍ أحضرَها معه، كانت باللغةِ التركية، ومكتوبةً بحروفٍ أرمنيةٍ ركيكة، تفيدُ أنها مرسلةٌ من أحدِ زعماءِ الأرمن، يتفقُ فيها مع الكواكبيِّ على تفاصيلِ الفتنة.



سلَّمَ التابعُ هذه الورقةَ المزوّرةَ إلى رئيسِ الشرطة، على زعمِ أنه وجدَها بين أوراقِ الكواكبي. فتوجَّه رئيسُ الشرطةِ إلى الوالي، وسلَّمَه الورقةَ بدورِه. فأصدرَ الوالي أمراً بالقبضِ على الكواكبي.



بعدَ القبضِ على الكواكبي أُلقيَ في السّجن، بينما كان الوالي يتّفقُ مع رئيسِ المحكمةِ على أن يصدرَ الحكمَ على الكواكبي بالإعدام. وبالفعل جرت محاكمةٌ صُوريَّة، انتهت بإصدارِ حكمِ الإعدامِ على الكواكبي.



تلقّى الكواكبيُّ الحكمَ بِربَاطةِ جأشٍ وشَجاعةٍ وثبات. وأسرعَ يطلبُ استئنافَ الحكم، وأن تَجْرِيَ محاكمتُه هذه المرة أمامَ محكمةِ بيروت، وذلك بسببِ العداوةِ الشخصيةِ التي بينه وبين الوالي.



استُجِيبَ لطلبِ الكواكبي، وفي محكمةِ بيروت قررَ القنصلُ الإيطالي أن الكواكبيَّ ليس له دخلٌ بما جَرى، وأن الحجرَ الذي أصابَه تبيَّن أنه مقذوفٌ بمقلاعِ أحدِ الأولاد. وهكذا حصلَ الكواكبيّ على براءتِه.

أسرة علم ودين

هو المصلحُ العربيُّ الكبير، عالمُ الاجتماع، الصحفيُّ والأديبُ عبدُ الرَّحمنِ الكواكبي. ولدَ في مدينةِ حلبَ عام ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ)، من أسرةٍ يمتدُّ نسبُها إلى علي بن أبي طالبٍ رضيَ الله عنه. كانت تعيشُ في مدينةِ أردبيل، وهي من أشهرِ مدنِ أذربيجان، وكانت تُعرَفُ بعائلةِ الأردبيلي. أولُ من انتقلَ إلى حلبَ من أبناءِ هذه الأسرة، هو محمدٌ أبو يحيى الكواكبي. وقد اكتسبَ لقبَ الكواكبي، لأنه بدأَ حياتَه حدَّاداً يصنعُ المساميرَ التي كانت تسمَّى الكواكب، ثم ترك مهنةَ الحِدَادَةِ وتصوَّف فبلغ مكانةً كبيرة؛ حتى إن الأمراءَ كانوا يأتون إلى بابِه، فيجدونه مستغرقاً في تبتُّلِه، فلا يَجْسُرون على قطعِ تعبّدِه، ويَبْقون في مكانِهم حتى ينتهِي مما هو فيه. وقد دُفنَ ذلك الجدُّ في المسجدِ المُقامِ بحلبَ والذي يعرف بجامعِ الكواكبيّ.

أما والدُ عبدِ الرحمن، مصلحِنا العربيِّ الكبير، فقد كان يسمّى أحمدَ بنَ محمد بن مسعودِ الكواكبي. وقد اشتُهِرَ بغزارةِ علمِه وسَعَةِ اطّلاعِه. تلقّى تعليمَه بالجامعِ الأمويِّ على شيوخِ

عصره بحلب، وصارَ أعظم عُلماءِ حلبَ في العلوم الشرعيةِ والفقهيةِ وباقي العلومِ الدينية، وبعد إلحاحٍ من الوالي، قبِلَ منصبَ قضاءِ حلب، ففرحَ به الناس، وحسَم الكثيرَ من خلافاتِهم القديمةِ بالتراضي بين أطرافِ الخِلاف.

كان عبدُ الرحمن، الابنَ البكرَ لذلك الأبِ العالمِ الفقيه، وعندما بلغَ عبدُ الرحمنِ السادسةَ من عمرِهِ، توفيت أُمُّه، وكانت من أسرةٍ رفيعةِ المقام، فقد كان أبوها مفتي انطاكية. وهكذا حُرِمَ عبدُ الرحمن حنانَ الأم، وواجَهَ قسوةَ الحياةِ منذ صغرِه. فقد أرسلَه أبوه إلى خالتِه السيدةِ صفيةَ بنتِ مسعودِ النقيب، ليقيمَ معها في أنطاكية. فتولَّت هذه الخالةُ أمرَه، وعوّضته بحنانِها عن حنانِ الأم. وكانت قد اشتُهرت بين صاحباتِها بإجادةِ القراءةِ والكتابةِ وحُسنِ الخطِّ والذكاءِ الحادّ، الأمرُ الذي لم يكن ليتيسَّرَ لكثيرٍ من النِّساءِ في ذلك الحين.

بقيَ عبدُ الرحمن في كنفِ خالتِه مدةَ ثلاثِ سنوات، تعلَّمَ خلالَها اللغةَ التركية، وتابعَ دراسةَ القراءةِ والكتابة. بعدها استدعاه والدُه ليعيشَ معه في حلب، واعتنَى به عنايةً كاملة، وأرسلَه إلى مدرسةٍ تدعَى مدرسةَ الشيخِ طاهر الكلزي، حيث تعلمَ العربيةَ والتركيةَ والفارسية.

وعندما بلَغَ الحاديةَ عشرةَ من عُمرِه، سافرَ عبدُ الرحمنِ ثانيةً إلى أنطاكية، ليعيشَ بين أقاربِ والدتِه، ويستمتعَ بجمالِ المدينة، وما فيها من بساتينَ وحدائقَ وشلاّلات. وفي نفسِ الوقتِ كان يتلقّى دراستَه على يَدي أستاذين فاضِلين من أقاربِه، العلامةِ عبدِ

الرحمنِ العُلَبي، والسيد نجيبِ النقيبِ عمٍّ والدتِه. وكانت شهرتُهما قد جاوزتِ الآفاق، فعيّنَ الخديويّ توفيق السيدَ نجيب النقيب مربّياً لابنه عباس حلمي.

لكنّ إقامَة عبدِ الرحمنِ الكواكبي بانطاكية هذه المرةَ لم تطُل، إذ إنها لم تتجاوزِ العام، فعادَ إلى حلبَ مرةً أخرى، ليقيمَ مع والدِه، وليلتحقَ بالمدرسةِ الكواكبيّة. والمدرسةُ الكواكبيةُ هي إحدى مآثرِ أجدادِ عبدِ الرحمن، أنشؤوها لتعليمِ العلومِ الشرعية، وقد سُميت الكواكبيةَ نسبةً إليهم. وكان والدُ عبدِ الرحمن مديرَ هذه المدرسة، وأحدَ معلّميها.

دخلَ عبدُ الرحمن المدرسةَ الكواكبية، فأخذَ عن والدِه الشيخِ أحمد دروسَ اللغةِ العربية والعلومِ الشرعية، كما تلقّى باقي دروسِه على أيدي عددٍ من أفضلِ الأساتذة، كالشيخ عبدِ القادرِ الحبّال، والشيخِ محمد عليّ الكَحِيل أمينِ الفتوى بحلب. كما تلقّى العلومَ العصريةَ على يدِ الأستاذِ خورشيد، وهو من أدباءِ الأتراكِ المشهورين، فأتقنَ التركيةَ والفارسيةَ كلاماً وكتابةً.

وصل عبدُ الرحمن في ذلك الوقتِ إلى نضوجٍ عقلي، جعلَه يمارسُ الكتابةَ والقراءةَ بشغفٍ وإقبالٍ شديدين، ويهتمُّ في نفسِ الوقتِ بالعلومِ الرياضيةِ والطبيعية، فيكثرُ من مطالعةِ الكتبِ والمراجعِ والمجلاتِ والصّحف. وكانت صحفُ استنبول، في ذلك الوقت، تصلُ إلى حلبَ بشكلٍ منتظم، وفيها الكثيرُ من الترجماتِ عن الثقافات الغربية الأوروبية. ولمّا كان عبدُ الرحمنِ قد تمكّنَ من اللغةِ التركية، فقد راحَ يلتهمُ كلَّ ما تضمُّه هذه الصحفُ من آراءِ

وأفكارٍ هي خلاصةُ الفكرِ الغربي. وكان يتطلعُ حولَه مراقباً أحوالَ بلدِه وأحوالَ الخلافةِ العثمانيةِ التي تخضعُ لها بلدُه، ويُقارنُ بين ما يقرأُ وما يرى، فيَصدمُه التناقض، ويحلمُ بنهضةٍ عربيةٍ إسلاميةٍ، تعيدُ للدولةِ الإسلاميةِ سابقَ مجدِها التليد، الذي عاينه من خلالِ دراستِه لتاريخِ الدولةِ الإسلامية والقوميةِ العربية.

تَدهورٌ واسْتبداد

ولكي نفهمَ ذلك التناقضَ الذي حيَّرَ عبدَ الرحمن الكواكبيّ، لا بدَّ أن نعرفَ شيئاً عن حالِ العالمِ العربيِّ في النصفِ الثاني من القرنِ التاسعَ عشر، العصرِ الذي عاشَ فيه الكواكبي. فمن المعروفِ أنَّ الدولةَ العثمانيةَ وصلَت أوجَ اتساعِها، وقمةَ مجدِها في عهدِ السلطانِ سليمان القانونيّ، فامتدت الأمبراطوريةُ العثمانيةُ على عهدِه من الدانوب إلى الخليجِ العربي، ومن أراضي الاستبس في أُوكرانيا إلى الشّلالاتِ في جنوبيِّ مصر. بعدَها، دخلت الأمبراطوريةُ العثمانيةُ طورَ التدهورِ والتفكّك.

يعودُ تدهورُ الدولةِ العثمانيةِ إلى عدةِ عواملَ داخلية، أهمُّها أن السلاطين بعدَ سليمانَ القانوني، كانوا سلسلةً من الحكامِ الضّعفاء. وتحوَّلَ جيشُ الانكشاريّةِ الذي يعتمدون عليه إلى أداةِ فسادٍ وفوضى، فأصبحت الجنديةُ بالنسبةِ لهم مهنةَ ارتزاق، كما وقفَ جنودُ الانكشاريةِ حجرَ عَثْرةٍ أمامَ كلِّ إصلاح، حتى إن السلطانَ سليماً الثالث، أحدَ سلاطينِ الدولةِ العثمانية، دفعَ حياتَه ثمناً لمحاولةِ إدخالِ بعضِ الاصلاحات، فخلعَه جنودُ الانكشارية عن العرش، ثم قتلوه.

ظلَّ الحالُ على ذلك، حتى نجحَ السلطانُ محمودُ الثاني، في مطلعِ القرنِ العشرين، في القضاءِ على الانكشاريةِ نهائياً، بعد أن توالت هزائمُ الدولةِ العثمانيةِ في عهدِه. وقد حاول السلطانُ بعد ذلك أن يكسِبَ العلماءَ إلى جانبِهِ للقيامِ بحركةٍ إصلاحيةٍ، لكنهم كانوا كالانكشارية عقبةً في سبيلِ أيِّ إصلاحٍ. وقد قويَ نفوذُ هؤلاءِ العلماءِ مع ضُعفِ الدولةِ العثمانية، واضطُرَّت الدولةُ في كثيرٍ من الأحيانِ إلى الاعتمادِ على فتاواهم، فكانت تسعى إلى استرضائِهم بكلِّ طريقة.

ثم أقدمت الدولةُ العثمانيةُ في عهدِ السلطانِ عبدِ الحميدِ على محاولةِ القيامِ بحركةٍ اصلاحيةٍ تسترشدُ فيها بالنهضةِ الأوروبية، تلك الحركةُ التي أُطلقَ عليها اسم «التنظيمات». وكان الدافعُ الأساسيُّ لإصدارِ هذه التنظيماتِ هو ضغطُ الدولِ الأوروبيةِ ومطالبتُها بالإصلاح، خاصةً بالنسبةِ للمسيحيين التابعين للدولةِ العثمانية. وشَهِدَت البلادُ تغييراتٍ كبيرةً في عهدِ هذه التنظيمات، وكان تطبيقُها في البلادِ العربيةِ متفاوتاً.

وكانت مدينةُ حلب، موطنُ عبدِ الرحمنِ الكواكبي، من الولاياتِ العثمانيةِ التي نالت حظاً كبيراً من المدارسِ الأجنبية، التي أخذَت الدولُ الأوروبيةُ في تأسيسِها لنشرِ لغتِهَا وثقافتِهَا. وكان لهذا النفوذِ الغربيِّ تأثيرُه على الثقافةِ والنهضةِ العلميةِ في حلب.

وبرغم هذا، فقد ازدادَ تدهورُ الدولةِ العثمانيةِ وساءت أحوالُها، وفشلت حركةُ الإصلاح. ونتيجةً لإسرافِ وبذخِ السلطانِ عبدِ العزيز، ارتفعت قيمةُ القُروض، وتضاعفت الديون، وخَسِرت

الدولةُ أكثرَ ممتلكاتِها في البَلْقان. وفي عام (١٨٧٥ م) أُعلنَ افلاسُ الدولةِ العثمانية، وبدأَ التدخلُ الفعليُّ من الدولِ الأوروبية في شؤونِ الدولةِ حفاظاً على حقوقِ دائنيها.

وفي عام (١٨٧٦ م)، عندما تولّى السلطانُ عبدُ الحميد حُكمَ الدولةِ العثمانية، كانت أحوالُها سيئةً ومتدهورةً للغاية. وقد عاش عبدُ الرحمنِ الكواكبيّ الجانبَ الأكبرَ من حياتِه في عهدِ ذَلِكَ السلطان، فقد استمرَّ حكمُ عبدِ الحميد لما يقاربُ ثلثَ القرن. كما أنَّ الكواكبيَّ تصدَّى لاستبدادِ ذلك السلطانِ بما لم يفعلْه كاتبٌ أو مصلحٌ آخرُ في زمنِه، وتحمَّل في سبيلِ ذلك الكثيرَ من الإيذاء.

عندما تولَّى السلطانُ عبدُ الحميد الحكمَ كان ظِلُّ الأحداثِ التي مرّت بها البلادُ قبلَه ينتشرُ حولَه، ويؤثرُ في نفسِه تأثيراً عميقاً، مما جعلَه يخافُ على عرشِه وحياتِه أشدَّ الخوف. وقد حَمَلَه هذا على اتخاذِ سلسلةٍ من التدابيرِ المعقَّدةِ الطويلة، أفضت إلى استبدادٍ لم تشهدْ الدولةُ العثمانية، بما فيها من بلادٍ عربيةٍ، مثيلاً له من قبل. نظامُ استبدادٍ فريدٌ في نوعِه، تصدَّى الكواكبي لمحاربتِه والتنديدِ به، مهاجماً ما فرضَه السلطانُ من نظامٍ دقيقٍ للتجسّس، والرَّقابةِ على الصحفِ والمجلات.

وقد مضت الدولةُ العثمانية، برغمِ هذا أو بسببِه، في طريقِ التدهورِ والانحطاطِ، ففقدت الكثيرَ من ممتلكاتِها. احتلت فرنسا تونس، وخَضَعَت مصرُ للاحتلالِ البريطاني، وانحسرَ الحكمُ العثمانيُّ في الخليجِ العربيِّ ونجْد. وكلما تزايدَ التدهور، حاولَ السلطانُ أن يضخِّمَ سلطتَه الدينيةَ كخليفةٍ للمسلمين، لدعم نفوذِه

السياسي. واستعانَ ببعضِ ذوي النفوسِ الضعيفةِ من العرب، فقرَّبَهم إليه، واعتمدَ عليهم في إبلاغهِ بالمعلوماتِ والتقاريرِ عن العناصرِ العربيةِ المتحررةِ في بلادِهم.

لكن كان هناك من أحرارِ العربِ مَن كشفَ ألاعيبَ السلطانِ عبدِ الحميد، وتصدَّى لها بالقولِ والعمل، وكان على رأسِ هؤلاء الأحرار، كاتبُنا ومصلحُنا العربيُّ الكبيرُ عبدُ الرحمنِ الكواكبي.

كِفاحٌ في الصِّحافة

نعودُ إلى عبدِ الرحمن وقد بلغَ سنَّ الشّباب، وهو يزحفُ نحوَ العشرينَ من عمرِه، يعيشُ في وسطٍ ثقافيٍ رفيع، مِن حولِه أبوه وأهلُه، وهم علماءُ وأدباءُ ومصلحون وفقهاء. وعلى مقربةٍ منه المدرسةُ التي كانت مَصنعاً لكثيرٍ من علماءِ عصرِه، نعني المدرسةَ الكواكبية.

ما كادَ عبدُ الرحمنِ يبلُغُ الثانية والعشرين من عمرِه، حتى أصبحَ محرراً غيرَ رسميٍّ لجريدة «الفرات»، وهي الجريدةُ الرسميةُ التي كانت تُصدرُها الحكومةُ باللغتين العربيةِ والتركية. وكان لهذه الجريدةِ تاريخٌ حافلٌ، فقد أسسَها المؤرخُ التركيُّ الشهيرُ أحمد جودت الباشا في عام ١٨٦٧ م (١٢٨٤ هـ)، حين كان والياً على حلَب، وأسماها «غَدَير الفرات»، ثم أصبحَ اسمُها «الفرات»، انتظاراً لفيضِ النهرِ الذي عاشَ الحلبيون قروناً ينتظرون قدومَه إليهم.

وبعد عامٍ واحدٍ أصبحَ عبدُ الرحمنِ محرراً رسمياً لهذه

الجريدة، براتبٍ شهريٍّ قدرُه ٨٠٠ قرش. لكنّه لم يكتفِ بهذا، بل راحَ ينشىءُ جريدةً يحررُها أسماها «الشهباء»، بالاشتراكِ مع هاشم العطار. وكان ذلك في عام ١٨٧٨ م (١٢٩٥ هـ). وكانت هذه الجريدةُ أولَ جريدةٍ عربيةٍ تَصدرُ في مدينةِ حلب، وفيها تألقت مواهبُ الكواكبي، وشاعت أفكارُه، وتكشّفت منزلتُه الرفيعةُ في عالمِ الأدبِ والسياسة.

فرحَ الناسُ في حلبَ بهذه الجريدة، وأقبلوا عليها، يلتهمون ما بها من أحاديثَ ومقالات، غيرَ أنهم لم يستمتعوا بها طويلاً. فبعدَ أيامٍ قليلةٍ من صدورِ هذه الجريدة، أصدرَ والي حلبَ كامل باشا القبرصي، والصدرُ الأعظمُ المشهور، قراراً بتعطيلِها. فقد كان ذلك الرجلُ يكرهُ الصحافةَ والحريةَ معاً، ورأى أن «الشهباء» أخذت تبثُّ في الناسِ رُوحَ العزة، وتُحيي آمالَهم في حياةٍ كريمةٍ للأمةِ العربية. وكان قرارُ التعطيل بدعوى أن الجريدة بدأت تشيرُ إلى استبدادِ السلطانِ عبد الحميد من طرفٍ خفيّ. وهكذا اضطُرَّ الكواكبيُّ إلى التوقفِ عن إصدارِ الجريدة.

لكنَّ الروح الحرةَ التي عكستها شخصيةُ الكواكبي، لم يكن من الممكنِ أن يتطرقَ إليها اليأسُ في مواجهةِ الاستبداد. فما كادت «الشّهباءُ» تتوقفُ عن الصدور، حتى أصدرَ صاحبُ امتيازِ الجريدة، جريدةً أخرى أسماها «الاعتدال» باللّغتين التركيةِ والعربية، وأسندَ تحريرَها إلى الكواكبيّ. وقد تعهدَ الكواكبيّ أن تسعى هذه الجريدةُ إلى كشفِ فسادِ الموظّفين ومساوىءِ الإداراتِ الحكوميةِ والدعوةِ إلى التحرر، وتعميقِ معرفةِ الجمهورِ بواقعهِ ومستقبلِه. غير أن هذه

الجريدةَ لقيت نفسَ المصير، عندما أغلقَها والي حلب جميل باشا.

من الصّحافةِ إلى المحاماة

تركَ عبدُ الرحمن الكواكبي الكتابةَ في الصحفِ إلى حين، ليتولّى عدداً من المناصبِ الإدارية. فعندما بلغَ الخامسةَ والعشرين من عمره، عُيِّن عضواً فخرياً في لَجْنتي المعارفِ والماليةِ بالولاية، ثم عُين بعد عامٍ عضواً فخرياً في لجنةِ الأشغالِ العامة، ورئيساً لقلمِ المُحضِّرين بولايةِ حلب، ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين.

وعندما بلغَ التاسعةَ والعشرين من عمرِه، عيّنته الحكومةُ مديراً فخرياً لمطبعةِ الولايةِ الرسمية، ثم رئيساً فخرياً للجنةِ الأشغال العامة، ثم عضواً لمحكمةِ التجارةِ بالولاية. وعُرف عن الكواكبي في كلِّ وظائفه التي تولاها، نزاهتُه وجديتُه وإصرارُه على نُصرةِ الحق، وحرصُه على مصلحةِ الجماهير. وقد أفادَ الكواكبي إفادةً كبرى من الأعمال التي أُسندت إليه، فتضاعفت خِبرتُه، وتعمّقَ فهمُه، وازدادَ تعرفاً على خفايا الدولة، وما تمارسهُ من مظالمَ في حقِّ الشعبِ العربي.

أحسَّ جميل باشا والي حلب، بخطورةِ ما يُنادِي به الكواكبي، سواءٌ بالقول أو العمل، فبدأَ يراقبُ حركاتِه، وخاصةً عندما عرَفَ أن جميعَ ما تُصدرُه صحفُ الآستانة وبيروتَ من طعنٍ فيه، مستمدٌّ من قلمِ الكواكبيّ وبإيعازٍ منه في أحيانٍ كثيرة. فتسوءُ العلاقةُ بينهما، ويضطرُّ الكواكبي إلى أن يستقيلَ من وظائفِه هذه، مُؤثراً خدمةَ الناسِ عن غيرِ طريقِ الوظيفةِ الحكومية.

في عام ١٨٨٦ م (١٣٠٤ هـ)، افتتحَ الكواكبيّ مكتباً للمحاماة، يُفتي فيه أصحابَ الدَّعاوى، ويكتبُ المذكراتِ والتظلّماتِ التي يرفعُها أبناءُ الشعبِ في مواجهةِ ظلم الحكام. وكانت دراسةُ الكواكبيّ الدقيقةُ لقوانينِ الدولةِ، وإلمامُه الجيّد بها، هما اللذان دفعا الحكومةَ إلى تعيينِه في لجنةِ امتحانِ المحامين.

أصبحَ مكتبُ المحاماةِ الذي افتتحَه الكواكبيُّ مَقصِداً للمتظلمين، وهكذا تضاعفت اصطداماتُه مع الوالي جميل باشا. فقد كان الكواكبيُّ يُرشدُ أصحابَ الحاجات الذين لم ينصفْهم الوالي، أو غَبَنَ حقوقَهم، كيف يُطالبون بهذه الحقوقِ وكيف يستردّونها. ومع كثرةِ المظالم التي كان يرتكبُها الوالي، تكاثرَت الاصطداماتُ بينه وبين الكواكبي، وكانت شكاوَى المظلومين التي يحرّرُها الكواكبيّ تصلُ إلى السلطانِ عبدِ الحميد تباعاً. فاضطرَّ السلطانُ رغمَ حبِّه للوالي أن يرسلَ مندوباً من طرفِه للتحقيقِ في هذه الشكاوَى بهدفِ استرضاءِ أهلِ حلب، وكسْبِ مودّتِهم.

أقامَ مندوبُ السلطان ولَجْنَةُ التحقيقِ المصاحبةُ له في حلبَ مدَّةً تزيدُ على الشهرين، ينظرون في الشكاوَى المقدَّمةِ من أفرادِ الشعبِ ضدَّ الوالي، وكلُّها محررٌ بقلمِ الكواكبي. وصادفَ أثناءَ ذلك، أن اعتدَى محامٍ أرمنيٌّ على الوالي، فأطلقَ رصاصةً أخطأته. وتمَّ القبضُ على المحامي، وحكم عليه بالسجنِ خمسةَ عشرَ عاماً. وانتهزَ الوالي هذه الفرصةَ للتخلصِ من أعدائِه، وفي مقدّمتِهم الكواكبي، فأودعَه السِّجن. وعندما تصاعدَ سُخطُ الناس وصلَ الأمرُ إلى السلطان، فأمرَ بتنحيةِ جميل باشا عن ولايةِ حلب، والافراجِ عن الكواكبي.

مؤامرة وتلفيق:

ما كادَ الوالي الجديدُ يصلُ إلى مدينةِ حلب، حتى عَيّن عبدَ الرحمنِ الكواكبي رئيساً لبلديتِها. لم يُضِع الكواكبي وقتاً، بل انتهزَ هذه الفرصة ليقومَ بالعديدِ من الإصلاحاتِ المفيدة، وكان من بينها توليدُ الكهرباءِ من شَلالات العاصي. كما تولّى الكواكبيُّ رئاسةَ غرفةِ التجارةِ والمصرفِ الزراعيِّ بحلب، فقام فيهما بإصلاحاتٍ مشهودة، تدلُّ على إلمامِه الكبيرِ بشؤونِ الاقتصادِ ومسائلِ العمران.

غير أن الأمر لم يَسِرْ على هذه الوتيرة، فقد كان الوالي الجديدُ عارف باشا فاسداً مُرْتَشِياً، فتصدّى له الكواكبيُّ وندَّدَ به في صحفِ الآستانةِ وبيروت، وهكذا أخذَ الوالي الجديدُ يتربّصُ بالكواكبي.

انتهزَ عارف باشا الحادثَ الذي وقع لقنصلِ إيطاليا في حلب، عندما تقدّمَ بشكوَى تقول إن أحدهم قذفه بحجر. فدبّر الوالي مكيدة، وزوَّرَ الأدلةَ حتى توصّل إلى اتهامِ الكواكبيّ بأنه هو الذي دبَّرَ الحادث، بهدفِ إحداثِ فتنةٍ بين المسلمين والأرمن. رتَّبَ الوالي محاكمةً مزورةً للكواكبي، فحُكمَ عليه بالإعدام. لكنَّ الكواكبي استأنفَ الحكمَ أمامَ محاكمِ بيروت، وحصلَ على براءتِه بعد أن تدخلَ القنصلُ لينفيَ التهمةَ عن الكواكبي، بعد أن اكتشفَ أنّ الحجرَ وقعَ عليه صُدفة، وكان مصدرُه مقلاع أحد الصبية. وعادَ الكواكبي إلى حلب، فواصلَ حربَه بلا هُوادةٍ ضدَّ الوالي عارف باشا، حتى تمَّ عزلُه عن حلبَ عام ١٨٩٢ م (١٣١٠ هـ).

بعد عزلِ الوالي أُسندت إلى الكواكبي رئاسةُ الغُرفةِ التجارية،

والمصرفِ الزراعيّ مرةً ثانية، ولكنه ما لبثَ أن استقالَ من وظائفِه هذه، وسافرَ عام ١٨٩٤ م (١٣١٢ هـ) إلى استنبول متنكّراً، لا يريدُ أن يعرفَه أحدٌ أو يتعرفَ عليه أحد، يريدُ أن يُلمَّ بأحوالِ استنبول، وأن يتعرفَ على مصدرِ الاستبدادِ في مدرستِه الكبرى، قصرِ البَلاطِ السلطاني المعروفِ باسمِ قصرِ (يَلْدِز).

لكن ما إن يصلُ الكواكبي إلى الاستانة، حتى يُنقَل خبرُ وصولِه إلى السلطانِ عبدِ الحميد عن طريقِ الجواسيسِ المنبثّين في كلِّ مكان. هنا يوعزُ السلطانُ إلى أحدِ أتباعِه أبي الهُدى الصَّيادي أن يستضيفَ الكواكبي، مع ما كان بين أسرةِ الصيادي وأسرةِ الكواكبيّ من عداوةٍ في حلب، ويشعرُ الكواكبيّ أن هذه الاستضافةَ من ورائِها رغبةٌ في التعرفِ على نواياه وخططِه لتبليغِها إلى السلطان، فلا تطولُ إقامتُه في الآستانة، ويغادرُها عائداً إلى حلب.

عندما عادَ الكواكبي إلى حلب، تولّى الكثيرَ من الأعمالِ بنجاحٍ ملحوظ، لكنّه كان يصطدمُ دائماً بمؤامراتِ السلطةِ الحاكمةِ ومكائدِها. أخذ التزامَ شركةِ التَّبغ، فنظَّمَ أمورَها، وكادَ أن يقفزَ بأرباحِها إلى ما يحققُ له ثروةً كبيرة، لكنَّ سلطاتِ حلب اختلقت فِتنة، نتجت عنها مشاغباتٌ ومذابح، وقضت على أحلامِ الكواكبي في هذا المشروع. ثم تولّى وظيفةَ رئيسِ كُتّابِ المحكمةِ الشرعية بحلب، وسُرعان ما ظهرت وجوهُ الإصلاحِ التي أدخلَها على سَيْرِ العملِ بها. لكن الحاقدين وعلى رأسِهم والي حلب، نَجحوا في إقصائِه عن هذه الوظيفة. ثم عُهِدَ إليه بعد ذلك برئاسةِ لَجنةِ بيعِ الأراضي الأميرية، ثم الغرفةِ التجاريةِ بحلب. ومع كلِّ ما كانَ يبذلُه

من جُهدٍ صادقٍ في هذه الأعمال، ومع ما حققه من نجاحٍ في إدارتِها، فقد كانت طاقةُ الظلمِ والاستبدادِ أقوى من مبادراتِه، مما اضطرَّه في نهايةِ الأمر إلى الاستقالةِ من جميعِ وظائفِه، والتفكيرِ في مغادرةِ البلادِ إلى مكانٍ تشيعُ فيه بعضُ نسماتِ الحرية.

الهجرةُ إلى مصر:

كَتَمَ الكواكبي خبرَ سفرِه حتى عن أقربِ المقرَّبين إليه من الأهل والأصدقاء، وأعلنَ أنه ينوِي السفرَ إلى عاصمةِ الدولةِ العثمانية، ليحاولَ التوسط للحصولِ على منصبٍ يرضيه. وفي عام ١٨٩٩ م (١٣١٦ هـ)، غادرَ الكواكبي حلبَ مُتجهاً إلى مصر.

كانت مصرُ في ذلك الوقتِ تضمُّ تجمعاً كبيراً لدُعاةِ التحررِ وزعماءِ الفكرِ الحرِّ الذين ضاقت بهم بلادُهم في عهدِ السلطان عبدِ الحميد الثاني، والذين ضاقوا بما يَسُودُ البلادَ من ظلمٍ وفسادٍ واستبداد. وكانت القاهرةُ وباريس هما الملتقى الأكبرَ للأحرارِ الذين وَفَدوا إليها فِراراً من وجهِ السلطان الظالمِ المستبد.

كان من الطبيعيِّ أن تكونَ مصرُ المكانَ الذي يَلجأ إليه أبناءُ سوريا ولبنانَ نتيجةٍ لوحدةِ اللغةِ والعادات، وللترحيبِ الذي كانوا يلاقونه من أهلِ مصر. وكانت مصرُ في ذلك الوقتِ خاضعةً للاحتلالِ البريطاني. غيرَ أنّ سلطاتِ الاحتلالِ كانت تشجّعُ الحركاتِ المناوئةَ والمعاديةَ للدولةِ العثمانية. كما أن حاكمَ مصر في ذلك الوقتِ الخديوي عباس حلمي كانت تراودُه الأحلامُ والآمالُ العريضةُ في انفصالِ مصرَ عن تركيا، بل كانت تراودُه فكرةُ انتزاعِ خلافةِ المسلمين من السلطان التركي. لهذا كلِّه كان من

الطبيعيِّ أن تصبحَ مصرُ مجالاً للعديدِ من الأحرار، تموجُ فيها نهضةٌ أدبية بفضلِ أعلامِ الأدبِ الذين قَدِموا إليها من جميعِ البلادِ العربية.

في مقدمةِ هؤلاء الأعلامِ الشيخُ محمد عبده الذي عاد من مَنفاه في بيروت عام (١٨٨٨ م)، يحاولُ قدْرَ استطاعتِه متابعةَ الإصلاح، قاصراً جهودَه على الميدَانَين الاجتماعي والثقافي، تاركاً الميدانَ السياسي. كذلك ظهرتْ في مصرَ طبقةٌ من الصحفيين الممتازين، وعلى رأسِهم الشيخُ علي يوسف صاحبُ جريدةِ «المؤيد»، كما حفِلَ ميدان الأدبِ بطائفةٍ من كبارِ الشعراءِ منهم سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم.

تلك كانت حالةَ مصرَ يوم أن وصلَها الكواكبيُّ في منتصفِ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٩ م (١٣١٧ هـ)، لا يرافقُه أحدٌ من أسرتِه سوى ابنِه الأكبر كاظم.

لم تمضِ على مبارحةِ الكواكبي حلبَ سوى عدةِ أيام، حتى عَرَفَ الناس بوجودِه في مصر. وأخذت جريدة «المؤيد» تنشرُ له كتابَه الذي أسماه «طبائع الاستبداد». يقولُ الشيخُ كاملٌ الغزيّ الذي كتبَ سيرةَ الكواكبي: «وبعد أن مضى على مبارحة حلب نحوُ بضعةَ عشرَ يوماً، لم نشعرْ إلا وصدى مقالاتِه في صحفِ مصر، وأخذت جريدة «المؤيد» تنشرُ له تَفْرِقة «كتاب طبائع الاستبداد» الذي لم يُطلعْنا عليه مُطلقاً، بخلافِ كتابِ جمعية «أمّ القرى»، فقد أطلعنا عليه مراراً، ثم إنه طبعَ الكتابين المذكورين، وقام لهما في «المابين» السلطانيّ ضَجّةٌ عظيمة، وصدرت إرادة السلطانِ بمنعِ

دخولِهما الى الممالِك العثمانية بَيْدَ أنهما رغماً عن ذلك كلِّه وصلا إلى حلبَ على صورةٍ خفيّة، وقرأناهما في سمرِنا المرةَ بعدَ المرة».

إلى البلادِ العربية:

لقيَ عبدُ الرحمنِ الكواكبي في مصرَ إخواناً وأصدقاءَ من السوريين الذين هَربوا قبلَه، وكانوا يَعملون لحريةِ العربِ واستقلالِهم، فانضمَّ إليهم، وسادت بينهم المودة، فكانوا يجتمعون في مقهَى «سَبْلَنْدِد»، ومنهم رشيد رضا الذي جاءَ من بلدتِه «قلمون» في طرابلس، فِراراً إلى مصر، فوصلَها قَبل الكواكبي بعامٍ ليلحق بأستاذِه محمد عبده. وكذلك عبدُ الحميدِ الزّهراوي الذي لعبَ دوراً هاماً في الحركةِ العربيةِ بعدَ تولّيه رئاسةَ المؤتمرِ العربي الأولِ الذي عُقدَ في باريس عام (١٩١٣ م). كما أتيحت الفرصة للكواكبي لأن يلتقيَ بمحمد كُرْد علي، وإبراهيم سليم النجار، والشيخ طاهر الجزائري وكلُّهم مَشهورون في البلاغةِ والبيان والكتابةِ والفِكر، عَمِلوا في القُطرِ المصري، فأَرسوا مقالاتِهم في الصحافةِ صرخاتٍ مدويةً في سبيلِ كرامةِ الفردِ وعزةِ العربي.

سكن الكواكبي في مصر، بشارعِ الإمامِ الحسين، بالقربِ من الأزهر، وراحَ يقرأُ ويحررُ وينشرُ حتَى عُرِف في مصرَ واشتَهرَ أمرُه، وخاصةً عندما نشرَ كتابَه «أم القرى» وقد ألفَه حين كان بحلب. ثم ازدادت شهرتُه، وذاعَ صيتُه حين نشرَ في جريدةِ «المؤيد» مقالاتِه عن الاستبدادِ بغيرِ توقيع، فقد كان فيها مفكراً عظيماً ومُصلحاً كبيراً، حتى كانوا يصيحون: إن الكواكبي معجزةُ

الكُتّابِ السياسيين لعصرِهِ بمصر.

وبعدها، توثَّقت عُرى الصداقةِ بين الكواكبي والخديوي عَباس حلمي الثاني. ويبدو أن الكواكبي تَعرَّفَ إلى الخديوي عن طريقِ رشيد رضا والشيخ علي يوسف، والمعروفُ أن الخديوي عباساً كان يطمعُ في الخِلافةِ الإسلامية، يريدُ أن يتولاها بدلاً من السلطانِ عبدِ الحميد. وكان الخديوي في الفَترةِ التي وصلَ فيها الكواكبي على خلافٍ مع السلطانِ العثماني، يقرِّبُ إليه الأحرارَ السوريين الذين كانت بينهم وبين السلطانِ عداوةٌ أو خِلاف.

ويتخذُ المؤرّخون من عَلاقةِ الكواكبي بالخديوي عباس الثاني دليلاً على أنه هو الذي أوعزَ للكواكبي برحلتِه التي طافَ فيها البلادَ العربية، وأنّ هذه الرحلةَ كانت للدعايةِ الخاصةِ بالخديوي بشأنِ الخِلافةِ الإسلامية. ولكنّ هذا القولَ غيرُ ثابتٍ وتعوزُه الأدلّة. في هذا يقولُ الكاتبُ الكبيرُ عباس محمود العقاد: «قرأت كتبَ الكواكبي، فرأيت أن الرجلَ يَدعو إلى غايةٍ طويلةِ الأمد، ويعلمُ أنها لا تتمُّ في حياةِ فردٍ واحد، ويوطنُ العزائمَ على ذلك بين قرائِه وصَحْبِه».

والدارسُ لشخصيةِ الكواكبي ومدى إخلاصِه للقضيةِ التي نادى بها وعاشَ من أجلها، وهي حقُّ العربِ في الحياةِ الحرةِ الكريمة، مستقلين أعزاءَ كُرماءَ على أنفسِهم، أقوياء مع الحق، حرباً على الباطل، حمايةً للدينِ الإسلامي، الدارِسُ لحياةِ هذه الشخصيةِ لا يوافقُ على أن الكواكبي كان يعملُ لحساب أحد. ومن المعروفِ أن الكواكبي دَعا إلى حقِّ العرب، وبالذاتِ أهلِ الجزيرةِ

العربية، في الخلافةِ الإسلامية، وأن يكونَ الخليفةُ عربياً قُرَشِياً، وهو شرطٌ لا ينطبقُ على الخدِيوي عباس حِلمي الثاني.

كذلك يَذكُر الدارسون لحياةِ الكواكبي، أنه ما إن عاد من رحلتِه إلى البلادِ العربيةِ حتى وجدَ نفسَه بدونِ عملٍ يَسُدُّ به نفقاتِه. ولو أنه كان يعملُ لحسابِ الخديوي لما واجهَ نوعاً من الضّيقِ في معيشتِه، ولأَغدقَ عليه الخديوي الكثيرَ من الهِباتِ والعَطايا.

كانت رحلاتُ الكواكبي إلى البلادِ العربيةِ على مَرحلتين، فزارَ في الرحلةِ الأولى السودان، ووصلَ إلى سواحلِ إفريقيا الشرقية، فزارَ زِنْجبار والحَبَشة، وعاد بعدها إلى مصر، ليستعدَّ لرحلتِه الثانية. وفي رحلتِه الثانيةِ زارَ الكواكبي الحجازَ وصحراءَ الجزيرةِ العربيةِ واليمن، ومنها سارَ إلى الهندِ فوصلَ إلى ميناءِ كراتشي، حيث عادَ على ظهرِ سفينةٍ إيطاليةٍ طافت به سواحلَ بلادِ العربِ وسواحلُ افريقيا الشرقية، وعادَ الكواكبي من هذه الرحلةِ بمعلوماتٍ وافرةٍ عن حالةِ البلادِ الزراعيةِ وثروتِها المعدنية، حتى إنه استحضرَ نماذجَ المعادنِ التي وجدَها بتلك البلاد.

ويصطدمُ المؤرخُ لحياةِ الكواكبي، بالمعلوماتِ القليلة عن رحلتِه المهمةِ التي طافَ فيها البلادَ العربية، وعن الأشخاصِ الذين التقى بهم، وعن انطباعاتِهم وتاريخِ زياراتِه لكلِّ قُطرٍ من الأقطار. والسببُ في هذا أن الكواكبي كان قد وعدَ بكتابةِ وصفٍ لرحلاتِه هذه في كتابٍ كامل، لولا أنه تُوفي قبل أن يتمكنَ من ذلك، في ١٤ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٢ م (١٣٢٠ هـ).

خيرُ مظلومٍ وكاتب

كان الكواكبي قد اعتادَ كلَّ مساءٍ أن يجتمعَ بإخوانِه وأصدقائِه في أحدِ المقاهي. وفي اليومِ الذي توفي فيه، جلسَ في مقهى «يلدز» قربَ حديقةِ الأزبكية، وكان معه يومَها الأستاذُ رشيد رضا، ومحمد كُرْد علي، وإبراهيم سليم النّجار. وشربَ الكواكبي القهوةَ كعادتِه، ثم أحسَّ بعدَها بألم في أمعائِه، فقام ابنُه كاظم بنقلِه إلى منزلِه حيث أصابتْه نوبة قلبيةٌ تُوفّي على أثرِها، وكان عمرُه في ذلك الحين خمسين عاماً.

ما إن علمَ الخديوي عباس بوفاته، حتى أمرَ بأن يُدفنَ على نفقتِه الخاصة، ودفنَ في بابِ الوزير، ثم نُقل رُفاتُه بعد ذلك إلى مكان آخر بباب الوزير، وعليها بيتان لشاعرِ النيل حافظ إبراهيم:

هنا رجلُ الدّنيا هنا مهبطُ التقى
هنا خيرُ مَظلوم، هنا خيرُ كاتبِ
قِفوا واقرؤوا أمَّ الكتابِ وسلّموا
عليه، فهذا القبرُ قبرُ الكواكبي

نعاه كلُّ مخلصٍ من أبناءِ الأمةِ العربية، وصَدَرت صُحف «الأهرام» و«المؤيد» و«اللواء»، تبكي الخسارةَ الكُبرى التي ألمّت بالأمةِ العربيةِ لوفاتِه، وأشادَ الجميعُ بفضلِه ودَوره. وبكاه المؤرخُ الكبيرُ مصطفى صادق الرافعي في قصيدةٍ طويلةٍ يقولُ فيها:

سَلُوا حامليه هل رَأوا حولَ نعشِه
ملائكةً مِن حاربٍ خلفَ حاربِ
وهل حَمَلوا التّقوى إلى حُفرةِ الثرى

وساروا بذاك الطودِ فوقَ المناكب
وهل أَغمدوا في قبره صارماً إذا
تجرَّدَ. راعَ الشرقُ أهلَ المغاربِ
فكم هزَّه الإسلامُ في وجهِ حادث
فهزَّ صَقيلَ الحدِّ غَضْبَ المضارب
أرى حَسَراتٍ في النفوسِ تهافتت
لها قِطَعُ الأحشاءِ من كلِّ جانب

إنجازاتُه

يحتلُّ عبدُ الرحمنِ الكواكبي في تاريخِنا الحديث موقعَ الصدارةِ بين المفكّرين والزعماء، والمصلحين وعلماءِ الاجتماع، وأربابِ السياسة، وقادةِ الفكر، ورجالِ الدين، وأدباءِ الخُطبةِ والروايةِ والقصة.

الكواكبي كاتباً

كتاب «طبائع الاستبداد» وكتاب «أم القرى»، هما من أهمِّ ما كتبَ عبدُ الرحمن الكواكبي، وقد نُشرا في مصرَ حَوالى عام (١٩٠٠ م).

طبائع الاستبداد

جاء في عنوانِ كتابِ «طبائع الاستبداد»، طبائعُ الاستبدادِ ومصارعُ الاستعباد، وهي كلماتُ حقّ، وصيحةٌ في واد، إن ذَهبت اليومَ مع الريحِ فقد تذهبُ غداً بالأوتاد، محررُها هو الرَّحالةُ ك، وهو مجموعةُ مقالاتٍ وفصولٍ أُخذت من كلِّ مصدرٍ بنصيب، من القرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريفِ وأمثالِ العربِ والكتبِ التاريخيةِ العربيةِ والمترجمة. أضافَ إليها الكاتبُ خِبراتهِ الشخصيةَ عن الشعوبِ الاسلامية.

والكتابُ في مقدمةٍ وثمانيةِ فصول. عَرَضَ في مقدمةِ الكتابِ المصادرَ التي اعتمدَ عليها، وقدّمَ تعريفاً لكلمةِ الاستبدادِ كتمهيدٍ لبحثه. أمّا فصولُ الكتاب فيختصُّ كلٌّ منها بالربطِ بين الاستبدادِ وغيرِه من العناصر. فهو يدرسُ عَلاقةَ الاستبداد: بالدينِ والعلمِ والمجدِ والمالِ والأخلاقِ والتربيةِ والترقّي، ثم يتكلمُ في الفصلِ الأخيرِ عن كيفية التخلصِ من الاستبداد.

وللتدليلِ على أهميةِ هذا الكتاب، وأثرِه الكبيرِ على أبناءِ الشعبِ العربي، نذكّرُ بموقفِ السلطانِ عبد الحميد، الذي أرسلَ مبعوثِيه لجمعِ نسخِ الكتابِ من كل مكانٍ وحرقِها أو إتلافها، حتى لا ينتشرَ هذا الفكرُ الخطرُ على الاستبداد. وقد أصدرَ أوامرَه بتحريم تداولِ هذا الكتابِ في جميعِ البلادِ التي تقعُ في نطاقِ حكمِه أو في مجال نفوذِه.

وكان الكواكبي يؤمنُ أن كلماتِه التي أوردَها في كتابِه هذا، وإن لم تفعلْ فعلَها في زمنِه، إنَّ الأيامَ كفيلةٌ لها بأن تفعلَ فعلَها، وأن تُحققَ ما هَدَفَ اليه من كتابتِها. وقد صحَّ توقّعُ الكواكبي، فحدثت تطوّراتٌ كثيرةٌ بعدَ موتِه، ففي عام (١٩٠٨ م) اضطُرَّ السلطانُ عبدُ الحميد إلى إعادةِ العمل بالدُّستور، فلمّا حاولَ الرجوعَ عن وعدِه بعدمِ إبطالِ الدستور، انتهى الأمرُ بخلعِه عن العرشِ عام (١٩٠٩ م). كانت صيحةُ الكواكبي حين تصدّى لاستبدادِ الأتراك، بدايةَ صرخةٍ كبرى في وجهِ الظلمِ والطّغيانِ الذي شهدتْه البلادُ العربيةُ على عهدِ العثمانيين.

أمُّ القُرَى:

في هذا الكتاب نَرى الكواكبي مُبدعاً مبتكراً، وكاتباً اجتماعياً مثيراً وقاصًّا عظيماً. فقد استطاعَ أن يكتبَ ساعياً إلى إصلاح قومِه من العرب، على أسلوبِ قصةٍ تخيّلَها ونظمَ فصولَها. تصوّر أن جمعيةً من المسلمين اجتمعت في مكةَ المكرمة عامَ ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ)، وأن كلَّ قُطرٍ إسلاميّ أوفد عضواً يمثلُه في هذه الجمعية، وأنهم اختاروا العضوَ الممثلَ لمكةَ رئيساً لهم، واجتمعوا قبلَ الحجِّ للتداولِ في أمورِ المسلمين، يَعرِضون الأدواء، ويَصِفون الأدوية، ويشخّصون الأمراض، ويُبَسّطون العلاج.

وهو يتصورُ داراً في حيّ متطرفٍ في مكةَ تُعقدُ فيه الاجتماعاتُ بصورةٍ سرية، فيقول إنه استأجرَ هذه الدارَ باسمِ بوابٍ داغستانيّ حمايةً للاجتماعات وتحقيقاً لمزيدٍ من السرّية. وفي كتاب «أمّ القرى» يسجلُ الكواكبي ما دارَ في اثني عشرَ اجتماعاً غيرَ اجتماعِ الوَدَاع.

ففي الاجتماعِ الأول يتمُّ التعارفُ بين المندوبين، ثم يَستمعون الى خُطبةِ الرئيس التي حلّلَ فيها وضعَ الأمةِ الإسلامية،

جوانبَ قوّتِها وضُعفِها، وفي الاجتماعين الثاني والثالثِ تكلمَ ممثلو الدولِ في موضوعِ (الداءِ أو الفتورِ العام)، وفيه تشريحٌ لنواقضِ الأمةِ الإسلاميةِ في ذلك الوقت، وأخذ كلُّ عضوٍ يوضّحُ رأيَه في أسبابِ التدهور. أما الاجتماعُ الرابع، فقد خُصصَ لدراسةِ الدينِ والإسلامِ والشِّرك والتصوّف. وفي الاجتماعِ الخامسِ يَجرِي الحديثُ عن الكتابِ والسُّنَةِ النبوية. وكان موضوعُ الاجتماعِ السادسِ هو تفرّقُ المسلمين إلى شيَعٍ ومذاهب. وفي الاجتماع السابعِ استعراضٌ عامٌّ لبحثِ حالةِ النشءِ الخُلقية. أما باقي الاجتماعاتِ فقد خُصّصت لقراءةِ قانونِ الجمعيةِ فقرةً فقرة، وإبداءِ الملاحظاتِ قبلَ إقرارِه.

هذه هي الخطوطُ الرئيسيةُ لكتابِ «أمّ القرى»، رأينا فيها كيف أتقنَ الكواكبيّ حَبْكَ قصةِ الاجتماعات والمناقشات، حتى بَدت وكأنها قد تَمّت فِعلاً في مكانٍ معلومٍ وفي وقتٍ محدَّد. إنه مشروعُ خطّةٍ لجامعةٍ إسلاميةٍ انعقدت منذ أكثَرَ من سبعين عاماً.

الكواكبي سياسياً:

دخلَ الكواكبي السياسةَ من أوسعِ أبوابِها، فكتبَ في الصحفِ ينادِي بسياسةٍ عربيةٍ إسلامية، وألّفَ الكتب، ووضعَ المراجعَ والبحوثَ في سبيلِ هذه السياسة. وكان عملياً في أفكارِه السياسية، يضعُ المنهجَ والدستورَ والقانون. درسَ نُظمَ الحكمِ في الإسلامِ وطُرُقَه منذ زمنِ الخلفاءِ الراشدين حتى زمنِه، فاختارَ أحسنَها وأقربَها إلى الحكمِ المثالي، ورسمَ وظائفَ الأمراءِ والوزراء، وما يكونُ منَ المناصبِ الخطيرةِ في فوضى الحكمِ ونظامِه. وكتبَ في

توزيعِ الضرائب، وإعدادِ الدفاعِ عن الوطن، وتأمينِ العدالةِ القضائية، وبهذا كان السياسيَّ الداعِي الذي يفكرُ في أصغرِ التفاصيل.

الكواكبي عالِماً اجتماعياً:

كان الكواكبي على رأسِ الكُتّابِ الاجتماعيين الذين دَخلوا في صميمِ الشعبِ وأحسّوا بأوجاعِه وآلامِه وشكاواه. وقد حَرَصَ الكواكبي على انقاذِ الأمةِ العربيةِ الإسلاميةِ مما أصابَها من شرور، فدعا إلى التساوِي بين الناسِ وإلى توفيرِ العلمِ والغِذاءِ والكساءِ للفقراءَ، ونادَى بالعدالةِ الاجتماعية. وأرادَ أنَ يدفعَ الفتورَ عن المسلمين، وأن يجمعَهم على صعيدِ الحبِّ والتآلف.

وهو في ذلك قد عالجَ قضايا البيتِ والأسرةِ والتربيةِ والمرأةِ والشارعِ والحديقةِ والقصرِ والحُكم، فكان في ذلك كلِّه خيرَ حكيمٍ وخيرَ مصلحٍ اجتماعيّ.

الكواكبي أديباً:

كان الكواكبي إلى جانبِ ما سبقَ يصوِّرُ أفكارَه تصويرَ الكاتبِ الأديب، في لغةٍ متينةٍ سهلة، خرجَ فيها عن مستلزماتِ البيانِ القديم، بما فيها من تَكرارٍ وسَجْعٍ مُتصنَّع. ورغمَ أن الكواكبي كان يعالجُ موضوعاتٍ ليست أدبيةً، إلّا أنه كان يصوغُها بأسلوبٍ أدبي. ولعلَّ أوضَح مثال لخيالِه الأدبيّ، تلك المسرحيةُ الكاملةُ الفصولِ التي ضَمَّنَها كتابَه «أم القرى».

«وأنت أيُّها الشرقُ الفَخِيم، رعاك الله!.. ماذا دَهاك؟!..

ماذا أقعدَك عن مَسراك؟... أليست أرضُك تلك الأرضَ ذاتَ الجنانِ والأفنان، وسماؤُك تلك السماءَ مصدرَ الأنوار، ومَهْبِطَ الحكمةِ والأديان، وهواؤك ذلك النسيمَ العدلَ لا العواصَفُ والضّباب، وماؤُك ذلك العذبَ الغَدِقَ لا الكَدَرُ ولا الأُجَاج».

ياقوت الحَموي

«العالِم الجغرافي، الأديب»



هُوَ يَاقوت

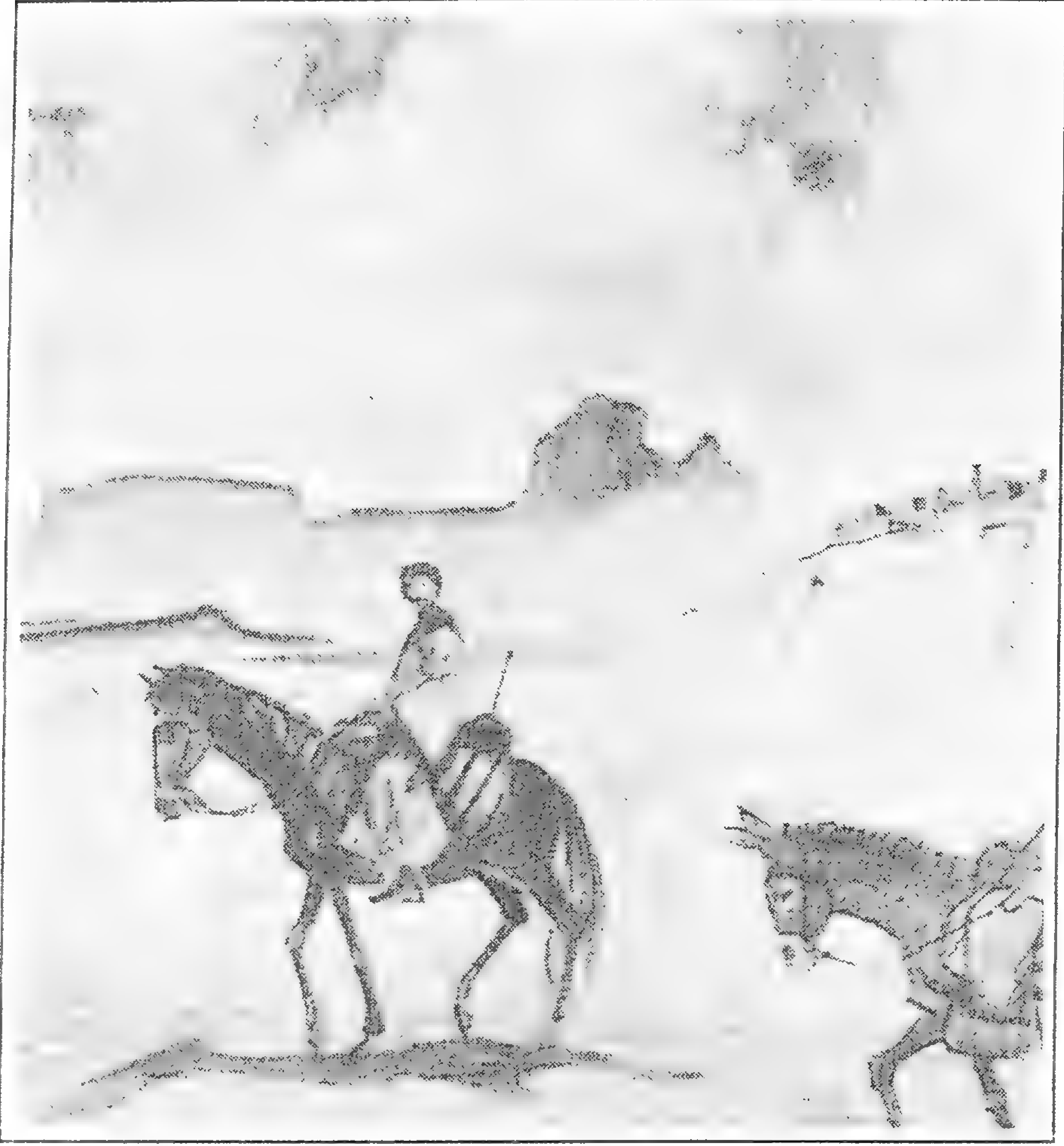
ابن عسكر

ابن أبي نصر

الحموي



توسَّمَ التاجرُ البغداديُّ في العبدِ ياقوتَ مظاهرَ الذكاءِ والتفوّق، فأعتقَه وأرسلَه في تجارةٍ يجوبُ بها أنحاءَ البلاد. نجحَ ياقوتُ في مهمتِه، وكسَبَ مالاً كثيراً، ولكنه عاد إلى بغدادَ ليجدَ سيدَه التاجرَ قد توفِّي.



أثرى ياقوتُ بعدَ وفاةِ سيدِه التاجرِ الكبير، فقرَّرَ أن يمارسَ تجارةَ الكتب، حتى يستفيدَ من خبرتِهِ التجاريةِ السابقة، ويتاحَ له في نفسِ الوقتِ أن يَطَّلعَ على أكبرِ عددٍ من المراجعِ العلميةِ التي يعشقُها. وبعد أن سافرَ إلى بلادٍ عديدة، استقرَّ في مدينةِ (مَرْو).



تضاعَفَ إعجابُ ياقوتَ بمدينةِ (مَرْوَ)، لِما وجدَه بها من مكتباتٍ زاخرةٍ بالمراجعِ والمخطوطاتِ الثمينة، فراحَ يقرأُ هذه المراجع، ويدوّن مذكراتِه وخواطرَه. ويفكّرُ في كتابةِ مرجعٍ جغرافيٍّ كبير، يجمعُ كلَّ حصيلتِه من المعلوماتِ الجغرافية.



قبلَ أن يبدأَ في كتابةِ مرجعِه، يزورُه صديقٌ قديمٌ، جاء من رحلةٍ طويلةٍ مَرَّ فيها على بعضِ المدن، ومنها مدينتا (بُخارَى) و(سَمَرْقَنْد). كان الرعبُ يسيطرُ على صديقِه، وهو يحكِي له عما فعلَه التتارُ بهاتين المدينتين.



قال الصديقُ إنَّ التتار، بكلِّ همجيتِهم هَجَموا على المدينتين واستولَوْا عليهما. وكانوا ما إن يتمُّ استيلاؤهم على إحدى المدن، حتى يُخرّبوا ديارَها ومبانيها، ويدمّروا معالمَ الحياةِ فيها. حتى بَعثوا الذعرَ في نفوسِ الجميع.



وعندما علمَ ياقوتُ بأنَّ التتارَ يتَّجهون في زحفِهم إلى حيث يقيم، أصابَه القلق، فذهبَ إلى جماعةٍ من أهلِ مَرْوَ يستشيرُهم. قالوا إنهم سَمِعوا بزحفِ التتار، ولكنهم يعتقدون أن هذا الزحفَ ما يلبثُ أن يتوقَّف، قبل أن يَصِلُوا إلى (مرو).



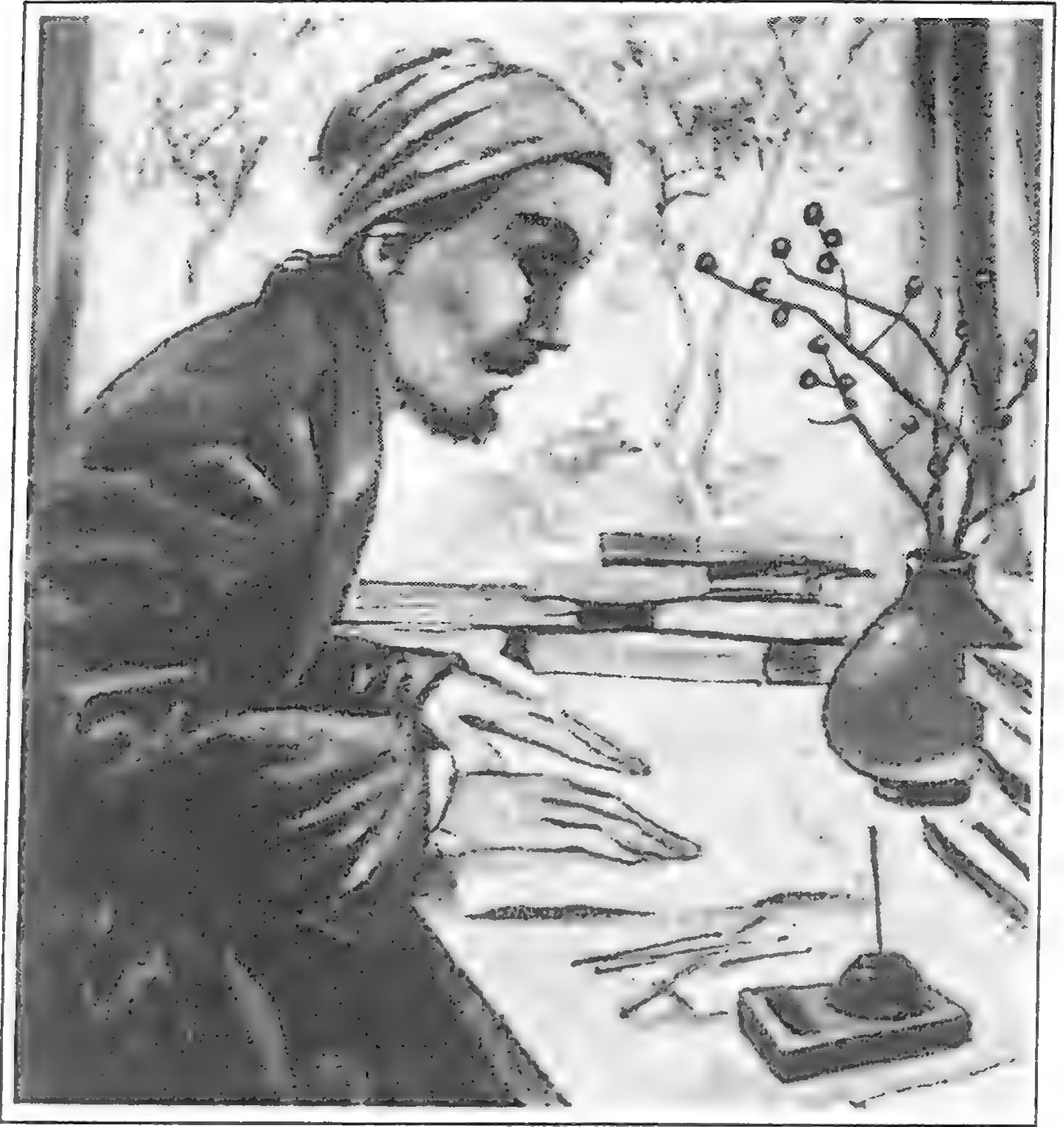
غيرَ أن الأيامَ أثبتت عكسَ هذا، فقد توالَى زحفُ التتار، حتى اقتربوا من المدينة، وكانت أخبارُ عُنفِهم وتقتيلِهم وتخريبِهم تسبقُهم على أفواهِ الفارّين أمامَ زحفِهم. فما كان من ياقوت، إلاَّ أن تركَ معظمَ متاعِه، وفرَّ هارباً إلى خُرَاسان.



ظَنَّ ياقوتُ أنه يستطيعُ أن يستقرَّ في هذه المدينةِ ذاتِ القصورِ والبساتين، لكن التتارَ ما لبثوا أن وَصلوا إلى مشارِفِها، فاضطُرَّ ياقوتُ إلى الفِرارِ مرةً ثانية، ماراً على (الرَّيّ) و(قَزْوين)، حتى بَلغَ مدينةَ (الموصل).



لـم يـكـتـفِ يـاقـوتُ بـالابـتـعـادِ إلـى الموصل، التي أحسَّ أنه سيظلُّ فيها قريباً من موطنِ الخَطر، فأرسلَ إلى الوزيرِ الفيلسوفِ القِفْطيِّ حاكمِ مدينةِ حلبَ يعرِضُ إقامتَه بها. ولم يمضِ وقتٌ طويل، حتى وصلتْه إجابةٌ عن رسالتِه تتضمنُ الترحيبَ به.



في حلبَ استقرَّ ياقوتُ واستراح، وشجَّعَه اهتمامُ الوزيرِ القِفْطيّ ورعايتُه، على البدءِ في كتابةِ مادةِ مرجعهِ الجغرافيّ الشَهير «معجمَ البلدان». انشغلَ ياقوتُ بهذا العملِ الضخمِ حتى أنجزَه، وقدَّمه هديةً للوزيرِ الفيلسوف.

غرائبُ المصادفات

ياقوتُ الحمويّ.. من هو؟.. اختلفت في ذلك القصصُ والحكاياتُ ولكنها اتَّفقت جميعاً على أنهُ وُلِدَ ببلادِ الروم، أو ما يسمَّى بآسيا الصُّغرى عام ١١٧٩ م (٥٧٥ هـ). ولكن كيف تَسَنَّى لهذا الطفلِ الذي ينتسبُ إلى سُلالةٍ عربيةٍ أن يولدَ في تلك الأرضِ البعيدة التي يسكنُها الرومُ وهم أعداءُ العربِ في ذلك الحين؟...

في ذلك الوقت، كانت الحروبُ لا تنتهي بين العربِ وأعدائِهم الروم. حروبٌ واشتباكاتٌ مستمرة. وفي كلِّ حربٍ منها يقعُ الأسرى بين يدي كلٍّ من الجيشين المتحاربين. فنرى أسرى الرومِ في بلادِ العرب، وأسْرى العربِ في أيدي الروم.

في حربٍ من هذه الحروب يقعُ المواطنُ العربيُّ عبدُالله أسيراً في يدِ الروم، ويعيشُ لسنواتٍ طويلةٍ في بلادِ الروم. يتزوجُ ويُنجبُ أطفالاً من بينهم طُفلنا ياقوت. هنا، تَحْدُثُ المصادفةُ العجيبة، تجرِي معركةٌ بين العربِ والروم، فيقعُ الطفلُ الصغيرُ ياقوتُ فِي يدِ العرب، الذين يتَّجهون به إلى بغداد، حيث يباعُ في الأسواقِ الخاصةِ بالأسرى والعبيدِ باعتبارِه طفلاً رومياً. ويتقدمُ

لشراءِ ياقوت، تاجرٌ غني يسمّى عَسكَرَ بنَ أبي نصرِ الحمويّ. وهكذا اكتسبَ طفلُنا اسمَه الذي عُرِفَ به بعد ذلك، ياقوتَ الحَمَويّ.

كان من حُسنِ حظِّ ياقوتَ أن يصبحَ مملوكاً لذلك التاجرِ الحمويِّ. فما ان استقرَّ ياقوتُ في بيتِ ذلك التاجر، حتى تفتَّحت مواهبُه. وانتبهَ عسكرُ الحمويُّ لمظاهرِ الذكاءِ والفطنةِ التي يُبديها هذا الطفلُ الروميُّ الصغير، فاهتمَّ بتعليمِه مختلفَ العلوم، وبخاصةٍ تلك العلومَ التي تجعلُه قادراً على ضبطِ حساباتِ التجارةِ والتعاملاتِ التجارية. وما كادَ ياقوتُ يجلسُ بين يَدَي معلميه حتى برهن عن ذَكاءٍ فارطٍ وقدراتٍ لا حَدَّ لها مما جَعَلَ تفوّقَه في دراستِهِ ملموساً من الجميع.

استطاع الصبيُّ الصغيرُ القادمُ من بلادِ الروم أن يتفوّقَ في علومِ اللغةِ والنحو، ويُفيدَ كلَّ الإفادةِ من علمِ اساتذتِه، وأن يتغلبَ على رواسبِ لغتهِ القديمةِ التي تعلمَها في بلادِ الروم. وكان من بينِ أساتذتِه (الكَعْبَريّ) الأديبُ اللغوي، و(ابنُ يَعِيش) النَّحوي. ومن العجيبِ أن ياقوتَ استطاع بفضلِ اجتهادِه هذا أن يقولَ أشعاراً رقيقةً تدلُّ على خيالٍ خَصْب، وموهبةٍ أصيلة.

عندما تأكّدَ التاجرُ الحمويُّ من أن الصبيَّ قد اجتازَ دراستَه الأولى بنجاح، وعندما تَثبَّتَ من ذكائِه وعقلِه الراجح، قررَ أن يُعِدَّه لممارسةِ التجارة، حتى يعتمدَ عليه في عملِه. فبدأ عسكرُ بنُ أبي نصرِ الحمويُّ يصحَبُ الفتى ياقوتَ في أسفارِه، ورغمَ صغرِ سنِّه، لاحظ الحمويُّ سُرعَةَ استيعابِ الفتى لشؤونِ التجارة. وفهمَه لأدقِّ تفاصيلِها.

حَرَصَ الحمويُّ بعد ذلك على تعليم ياقوتَ علومَ الحساب، حتى يساعدَه على ضبطِ حسابِ تجارتِه، وقد أظهرَ ياقوتُ تفوُّقَه أيضاً في هذا المجال، مما بعثَ الاطمئنانَ في نفسِ التاجرِ الحمويّ، وقرَّر أن يبعثَ ياقوتَ وَحدَه، في بعضِ أسفارِ تجارتِه الكثيرة.

في أسفارِه الأولى، تعدَّدت رِحلاتُ ياقوتَ إلى جزيرةٍ في الخليجِ العربيِّ تدعى (كرش)، كانت في ذلك الحينِ من أهمِّ المراكزِ التجاريةِ العربيةِ الإسلامية، إذ كان يفدُ إليها كثيرٌ من تجارِ العالم العربيِّ والإسلامي وغيرِه من الأقطار، حتى أصبحت مركزاً كبيراً لتجمّعِ أعدادٍ كبيرةٍ من ممثلي التجّارِ من مختلفِ الأقطار والشعوب. وقد اكتسبت هذه الجزيرةُ تلك المكانةَ لموقعِها الفريد، ولتوافرِ الخصبِ فيها، فقد عُرفت بنخيلِها وثمارِها وعيونِها التي يتدفقُ منها الماءُ العذبُ، مما يكفي احتياجاتِ أهلِها، بالإضافة إلى الأعدادِ الكبيرةِ من التجارِ الذين كانوا يأتون إليها من مختلفِ البلاد، ويجتمعون فيها للتبادلِ التجاري.

ومع النجاحِ الذي حقّقَه ياقوتُ في رحلاتِه التجارية، اكتسبَ مكانةً كبيرةً في نفسِ التاجرِ الحموي. ورغمَ حِرْصِ التاجرِ على تعليم ياقوتَ دقائقَ حرفةِ التجارة، والتركيز على ذلك، فقد أفاد ياقوتُ من هذه الأسفارِ فائدةً أخرى لم يكن سيّدُه الحمويُّ يتوقعُها. لقد كانت هذه الرحلاتُ هي الجامعةُ التي درسَ فيها ياقوتُ مختلف العلوم والآداب، مما وفرَّ له المعلوماتِ التي ظهرَ أثرُها بعدَ ذلك في أعمالِه العلميةِ التي أنجزَها.

لقد كانت الرحلاتُ والأسفارُ عندَ العربِ في ذلك الوقتِ وسيلةً للتجارةِ وتبادلِ السِّلع، كما كانت في نفسِ الوقتِ وسيلةً لتبادلِ المعارفِ والاطّلاع على ما وصلَ إليه العقلُ البشريُّ في مختلفِ الأقطار. ذلك لأنَّ الثقافةَ العربيةَ في ذلك الوقت، أيام الدولةِ العباسيةِ الثانية، كانت قد تفرَّقت مصادرُها، ولم تعدْ كما كانت من قبلُ محصورةً في بغداد. فبرغمِ تفكّكِ الدولةِ العربيةِ الإسلامية الكبرى، ورغمِ تخوّفِ العلماءِ من أثرِ هذا على العلومِ والآداب، فقد حدثَ على العكس من هذا، أن الحكامَ الجددَ في الدولِ والإماراتِ التي انفصلت عن خلافةِ بغداد، عمِلُوا على دَعْم مُلْكِهِم الناشىءِ بكلِّ مُقَوِّماتِ الحضارةِ في نشاطٍ وإصرار. واستعانَ هؤلاء الحكامُ بعددٍ كبيرٍ من العلماءِ في كلِّ فنٍّ وعلم، فازدهرت الحركةُ الثقافيةُ في أنحاءِ العالم الإسلامي، في الشرقِ عند الغَزْنَويين، وفي مصرَ على يدِ الفاطميّين والأيوبيين، وفي الأندلسِ على يدِ الأمويين. وكانت هذه الثقافاتُ تُتَناقلُ ويجرِي تبادلُها على أيدي التجارِ والرَّحالة، وهكذا استطاعَ ياقوتُ أن يُفيدَ أكبرَ إفادةٍ علميةٍ من زيارتِه لجزيرةِ (كرش)، فكان يُكثِرُ من زيارةِ دكاكينِ ومحالِّ الكتب، يقرأُ المخطوطات، ويشترِي ما يتمكنُ من شرائِه، ويناقشُ غيرَه ممن يسعى إلى تلك المكتباتِ الخاصة.

بالإضافةِ إلى هذا، حَرَصَ ياقوتُ دائماً على تسجيلِ ملاحظاتِه الدقيقةِ عن الأماكنِ التي يزورُها، وهي لم تكن بالتأكيدِ ملاحظاتِ التاجرِ أو السائح، بل كانت ملاحظاتِ العالِم الجغرافيِّ الذي تجتذبُه الحقائقُ الجغرافية، ويجدُ متعةً كبرى في الاستزادةِ منها وتفهّمِ غوامضِها.

كان ياقوتُ ينتهِي سريعاً من شؤونِ التجارةِ التي أوفده سيدُه الحمويُّ فيها، حتى يتفرغَ لزيارةِ دكاكينِ الوَرّاقين، وهي المكتباتُ الخاصةُ التي تحدَّثنا عنها. كان يَحرِصُ على شراءِ الكتبِ والمراجع، وينفقُ في ذلك كلَّ ما يَملِك. وعندما يَنْفَدُ ما عندَه من مال، كان ياقوتُ يعمدُ إلى نسخِ الكتبِ التي يهمُّه الاحتفاظُ بها، وبما فيها من معلوماتٍ ومعارف.

استمرت حياةُ ياقوتَ على ذلك النحو، فما يكادُ يصلُ إلى بغداد، وما إن يستقرُّ بعضَ الوقت، حتى يوفدَه سيدُه الحمويُّ في رحلةٍ تجاريةٍ جديدة، يستعدُّ لها في حَمَاس، ويُصرِّفُ أمورَها بسرعةٍ وعلى خيرِ وجه، ثم يتفرغُ لهوايتِه الكبرى، الكتبِ والقراءةِ والاطلاع، حتى تجمّعت في بيتِه مكتبةٌ كبيرةٌ كان يعتزُّ بها كلَّ الاعتزاز.

وعندما بلغَ ياقوتُ الواحدةَ والعشرين من عمرِه، نشأ بينَه وبين سيدِه خلاف، لا نعرفُ له سبباً، كان من نتيجتِه أن قرَّرَ التاجرُ الحمويُّ أن يقطَعَ صلاتِه بياقوت. لكنه كان كريماً معه، مقدِّراً لمواهبِه، فأعتقَه وأنهَى عبوديته، ليَمضيَ ياقوتُ في سبيلِه إنساناً حراً طليقاً.

عودةٌ إلى التّجارة

كانت هذه الخطوةُ نقطةَ تحولٍ كبيرةً في حياةِ ياقوت.. فلأوَّلِ مرةٍ في حياتِه يجدُ نفسَه حراً في اختيارِ ما يفعلُه، وفي رسم طريقِ حياتِه بالأسلوبِ الذي يُرضيه. كان حتى ذلك الوقتِ يبذلُ جهدَه في القيامِ بالمهماتِ التي يوكلُها إليه سيدُه بكلِّ حرصٍ ونجاح.. أما الآن، فعليه أن يختارَ لنفسِه المهامَّ التي يحبُّ أن يقومَ بِها.

لم يَطُلْ تفكيرُ ياقوتَ فيما ينوِي أن يفعَله، فقد كان أحبَّ شيءٍ إلى قلبِه، هو القراءةُ والاطِّلاع. ولكن، كيف يدبرُ شؤونَ حياتِهِ الأخرى إذا ما هو تفرغَ فقط للاطِّلاع؟... أين يسكنُ وماذا يأكل، وكيف يعيش؟... ومن أين يأتي بالنقودِ التي تُعينُه على حياةِ الاطلاعِ هذه؟... كانت سعادتُه كبيرةً عندما وقعَ اختيارُه آخرَ الأمر على أن يشتغلَ بنسْخِ الكتبِ ونقلِها لقاءَ أجرٍ يتقاضاه. ففي ذلك الزمن، لم تكن الكتبُ المطبوعةُ قد عُرِفت وشاعت بعد. وكان النسخُ اليدوي، هو الوسيلة للحصولِ على عدةِ نسخٍ من كتابٍ ما. وكان نسخُ الكتبِ ونقلُها مهنةً يتعيّشُ منها الكثيرون.

اختارَ ياقوتُ هذه المهنةَ يعيشُ منها، لأنّها أقربُ المِهَنِ إلى قلبِه، فنقلُ الكتبِ ونسخُها يفيدُه في تثبيتِ المعلوماتِ التي يحتفظ بها في ذاكرتِه، أكثرَ مِمّا تفعلُه القراءةُ السَّريعة. وكان في نفسِ الوقتِ يسعدُه كلَّ السعادةِ أن ينتهي من نسخِ كتابٍ هام، شاعراً أنّه بعملِه هذا يساعدُ على نشرِ العلمِ والثقافةِ بينَ الناس.

بالمال الذي كان يحصلُ عليه من هذه الحرفة، كان ياقوتُ يدبِّرُ شؤونَ معيشتِه بحرصٍ شديد، حتى يوفرَ قدراً من المال، يخصصُه لاقتناءِ الكتبِ والمخطوطاتِ التي كتبَها غيرُه من العلماءِ والمؤرخين، والتي تشبعُ نهمَه إلى المعرفة.

كان من الممكنِ أن تَمْضِي حياةُ ياقوتَ على هذا المنوال، لكنَّ تغييراً مفاجئاً حدث، فبدَّل حياتَه تبديلاً كاملاً. لقد ندمَ التاجرُ الحمويُّ على ما فعلَه مع ياقوت، وأدرك أنه وقعَ في خطأٍ جسيمٍ عندما قطعَ صلتَه بياقوت، واستغنى بذلك عن جهودِه الناجحةِ في إدارةِ تجارتِه. وأرادَ التاجرُ عسكر الحمويُّ أن يُصلحَ خطأه، ويسترجعَ علاقتَه بياقوت.

سعى التاجرُ عسكرٌ الحمويّ إلى ياقوت، وراحَ يسترضيه، ويعتذرُ له عمّا سلفَ منه، ويؤكدُ رغبتَه في عودةِ العلاقاتِ القديمةِ بينهما، ليس كسيدٍ وعبدٍ، ولكنْ كشركاءِ عمل، وزملاءِ تجارة. ورغم أن ياقوتَ كان سعيداً بحياتِه كناسخٍ للكتب، فقد تأثر تأثراً شديداً بمحاولاتِ وليِّ نعمتِه، وَضَعُفَ أمامَ الرجاءِ والاسترضاءِ والإلْحاح، فوافقَ على العودةِ إلى العملِ بالتجارةِ مع التاجرِ عسكرِ الحمويّ.

التفرغُ لرِحلاتِ الدراسة

هذه المرة، تطولُ رحلاتُ ياقوتَ وتتسعُ لتمتدَّ إلى كثيرٍ من البلادِ والأقطار، ويعطيه التاجرُ الحموي مالاً كثيراً وتجارةً واسعة. . . فيمضي في رحلاتٍ بعيدة، يبيعُ ويَشتري فيكسِبُ الكثيرَ من المال، وتُغريه هذه المكاسبُ المتدفّقة، فيتوسعُ في رحلتِه، وتطولُ غيبتُه لسنوات.

عندما يعودُ ياقوتُ من رحلتِه إلى بغدادَ يجدُ أن التاجرَ عسكراً الحمويَّ قد مات، فيقتسمُ أرباحَ هذه الرحلة مع زوجةِ الحمويِّ وأولاده، وعندما ينظرُ ياقوتُ إلى ما خصَّه من مال، يكتشفُ أنه قد أصبحَ ثرياً، يتمتعُ برأسِ مالٍ ضخم، له هو وحدَه، لا يشاركُه فيه أحد. فماذا يفعلُ بهذا المالِ الكثير؟ . . .

لم يطُلْ التفكيرُ بياقوت هذه المرة، فاتَّجه مباشرةً إلى تجارةِ الكتب، فهذا هو مَيْدَانُه المحبَّب، الذي يعشقُه ويفهمُ كلَّ دقائِقه. لقد اختارَ ياقوتُ هذا الميدانَ من النشاطِ التجاريّ، لأنه يجمعُ بين الخبرةِ التي اكتسبَها عندَ الاتجارِ في مالِ الحموي، بالإضافةِ لما يوفّرُه من فُرَصِ القراءةِ والاطلاعِ على أكبرِ عدد من المراجعِ والكتبِ والمخطوطات.

في ذلك الوقتِ كانت مهنةُ التجارةِ في الكتب، أو (الوِرَاقة) كما كانت تُسمَّى حينذاك، تقومُ مقامَ المدارسِ والمعاهِدِ والجامعات. ففي محالِّ الورّاقين كانت تتوافرُ في ذلك الحينِ وسيلةُ الثقافةِ والدراسةِ الوحيدةِ المُتاحة. هذا بالإضافةِ إلى الرحلاتِ التجاريةِ لشراءِ المخطوطات وبيعِها، التي كانت في حدّ ذاتِها مصدراً هاماً من مصادرِ المعلومات والمعارف الجغرافية.

هكذا، بدأ ياقوتُ رحلاتِه العديدة التي أفادَ منها كثيراً، في كتابِه المراجعِ التي وضعَها بعد ذلك. وكانت رحلتُه الأولى في عام ١٢١٣ م (٦١٠ هـ) إلى تبريزِ والموصلِ والشامِ ومِصر.

وفي عام ١٢١٦ م (٦١٣ هـ) كانت رحلتُه الثانية، من دمشقَ إلى حلب، ثم إرْبل وأرمينيا، ومنها إلى تَبْريز، وشرقيِّ إيران.. وفي مدينةِ (نَيْسَابور) التي ولدَ فِيها الشاعرُ والعالِمُ عمرُ الخيام ومات، أقامَ ياقوتُ مُدّةَ سنتين، حيث تزوجَ واستقر، وراحَ يلتهمُ المراجعَ العلميةَ التي تقعُ بين يديه، يقرأُها وينسخُها، ويدوّن ملاحظاتِه ومذكراته. وكان في نفسِ الوقتِ يدوّنُ ويصنّفُ ملاحظاتِه الجغرافيةَ عن البلادِ التي زارها، ويقارنُ بين هذه الملاحظاتِ وبين ما يردُ عن الجهاتِ التي زارها في كتبِ من سبقوه من علماءِ الجغرافيا.

ثم يحنُّ ياقوتُ إلى حياةِ التَّجوال، فيتركُ نيسابور متجهاً إلى (هَراة)، و(سَرَخْس)، حتى يبلغَ مدينةَ (مَرْو)، حيث يقيم بها مدّةَ سنتين، بعد أن أعجبته مكتباتُها الشهيرة، وظلَّ يتنقلُ بين هذه المكتبات، ويترددُ عليها، مستغلاً كلَّ وقتِه في القراءةِ والاطلاعِ وتدوينِ المذكرات.

قرّرَ ياقوت أن يُمضِي ما بقيَ من عمرِه في مدينة (مرو)، وأخذَ يفكر، لأولِ مرةٍ في حياته، في وضعِ مرجعٍ جغرافيّ يضمُّ شتَاتَ المعلوماتِ الجغرافيةِ التي كتبها من سبقوه من علماء، ويصححُ ما بها من خطأٍ أو تحريف، ثم يرتبُها وينسّقُها بطريقةٍ يَسْهلُ على القارىءِ أن يستفيدَ منها... وقد أطلق على ذلكَ المرجعِ الجغرافيّ الكبير اسم «معجم البلدان».

لكن أحداثاً هامة جرت في تلك المِنطَقة، أفسدت عليه مشروعاتِه العلميةَ هذه... لقد وصلت أخبارُ التتار...

هجومُ الرعبِ والفَزَع

في ذلك الوقتِ كان الخليفةُ الناصرُ لدينِ الله في بغدادَ يُعاني من نفوذِ السلاجقةِ الأتراك. وكان مَن سبقوه من خلفاءَ قد استعانوا بهم كجنودٍ أقوياءَ في حمايةِ خلافتِهم من الطامعين فيها. وبحثَ الناصرُ عن قوةٍ يعتمدُ عليها في كسرِ شوكةِ هؤلاء السّلاجقة. فاستقرَّ رأيُه على الاستعانةِ بالملوكِ الفرسِ في خُوارزم. ولكنّه بهذا ارتكبَ خطأً جسيماً، فحكّامُ خوارزمَ هؤلاء كانوا يحكمون دولةً فتيةً ناهضةً لها أطماعُها في الخلافةِ نفسِها.

وهكذا تخلصَ الناصرُ لدينِ الله من نفوذِ السلاجقة، ليقعَ تحتَ رحمةِ أمراءِ خوارزم وشاهاتِها. فماذا يفعل؟... هنا، ارتكبَ الناصرُ الخطأَ الثاني القاتلَ في حياتِهِ، وحياةِ الدولةِ الإسلامية، فاتصلَ بالمغولِ والتتار لكي يعاونوه على التخلصِ من عدوِّه الجديدِ (خوارزم شاه محمد)، الذي كان يتحركُ في جَيشٍ كبيرٍ نحوَ بغدَادَ يريدُ الاستيلاءَ عليها.

التجأَ الناصرُ إلى جَنْكِيزْخان سلطانِ المغولِ وقائدِهم وزعيمِ التتار، وما كادت رسالةُ الناصرِ تصلُ إلى جنكيزخان، حتى انطلقَ متحركاً نحوَ بغداد، تدفعُه أحلامُه في الاستيلاءِ على رُقعةِ الدولةِ الإسلامية، يشجعُه على ذلك ضُعْفُ الدولةِ الإسلاميةِ في ذلك الحين، وما أصابَها من تفككٍ وانفصالٍ في شكلِ دويلاتٍ صغيرة.

اندفعَ جنكيزخان إلى بغداد، فلحقَ بجيشِ شاه خوارزم، وقضى على الجيشِ والمملكةِ بأكملِها، ثم استعدَّ للاستيلاءِ على بغداد. . . والقضاءِ على الخليفةِ المستعصمِ بالله، الذي كان على رأس الدولةِ في ذلك الحين.

وصلت إلى ياقوتَ الحمويِّ أخبارُ ذلك الجيشِ الزاحف، والفظائعِ التي يرتكبُها. سمعَ عن هجومِ التتارِ على الكثيرِ من البلادِ الإسلاميةِ واستيلائِهم على (بُخارَى) و(سَمَرْقَنْد)، وارتكابِهم أشنعَ الجرائم، وإلقائِهم الرعبَ والفزعَ في قلوبِ الناس، بما يقومون به من تخريبٍ وتدمير.

هربَ ياقوتُ من وجهِ الخطرِ المقبل، مخلفاً وراءَه الكثيرَ من المراجعِ العلميةِ والمذكَّراتِ في (مرو)، لم يتمكنْ من حملِها معه أثناءَ هربِه العاجلِ السريع. بدأ ياقوتُ فِرارَه من وجهِ التتارِ قاصداً مدينةَ خُراسان، وظنَّ أن بإمكانِه أن يستقرَّ في هذه المدينة، وأنَّها ستكونُ بعيدةً عن متناولِ جنكيزخان، لكنْ ما لبثَ أن مرَّ بالمدينةِ الكثيرُ من أهلِ البلادِ الذين يهربُون من وجهِ الغُزاة، وقالوا إن الغزوَ سيدركُ مدينةَ خراسان في خلالِ أيامٍ معدودة. فما كان من ياقوت، إلاَّ أن أسرع لاحقاً بالهاربين، بعدَ أن تنازلَ في هربِهِ عن بعضِ

المراجعِ العلميةِ التي كان قد حَمَلها معه من مدينةِ (مرو).

وتكررت القصةُ بعد ذلك أكثرَ من مرة. ما إن وصلَ مدينة (الرَّيّ) حتى اضطُرَّ إلى الرحيلِ عنها إلى (قزوين)، ثم إلى (تبريز)، حتى وصلَ إلى مدينةِ (الموصل).

وصلَ ياقوتُ إلى مدينةِ الموصل فقيراً مُعْدماً لا يملكُ شيئاً، مُنْهكاً متعباً لا يقوَى على الحركَةِ، ورغمَ أنه وجدَ بالمدينةِ بعضَ مَن يستقبلُه ويستضيفُه، ورغمَ تأكيدِ أهلِ المدينةِ من أن جنكيزخان لن يصلَ إليها، وأن المدينةَ لا تقعُ في طريقِ غزوةِ التتار... رغمَ هذا كلِّه فقد أحسَّ ياقوت أن إقامَته بهذه المدينةِ سيَغْلِبُ عليها القلقُ وعدمُ الاطمئنان، فما إن استراحَ بعضَ الشيءِ من عناءِ فِراره الطويلِ حتى فكَّرَ في مواصلةِ السفرِ مبتعداً عن الخطرِ القادم، في مكانٍ يَسُودُه الاستقرارُ ويسمحُ له بمواصلةِ جهدِه العلميِّ في تأليفِ «معجم البلدان».

إلى أين؟..

ويخطرَ ببالِه هذا السؤال: لماذا لا يذهبُ إلى مدينةِ (حلب).. وهو يعرفُ أن فيلسوفَها ووزيرَها القِفْطي، وزيرَ الظاهرِ ابنِ صَلاحِ الدين الأيوبي، رجلُ علمٍ وأدبٍ وفلسفة، وهو الذي وضعَ كتابَ (أخبار العلماء بأخبارِ الحكَمةِ).

كتبَ ياقوتُ رسالةً إلى وزيرِ حلب، يطلبُ فيها الإذن له بالسفرِ إلى حلبَ والإقامةِ بها حتى يتمكنَ من إنجازِ مرجعِه الجغرافي. وهو في هذه الرسالةِ يتحدث عن حياتِه السابقةِ واعتزامِه

تأليفَ المرجعِ الجغرافي، ثم يقول: «إلى أن حدث بخراسَانِ ما حدثَ من الخرابِ والويل.. وكانت بلاداً مُونِقَة الأرجاءِ رائعةَ الأنحاء، ذاتَ رياضٍ أريضة، وأهويةٍ صحيحة، قد تغنّت أطيارُها، فتمايلت طَرباً أشجارُها»، إلى أن يقول: «فجاسَ خلالَ تلك الديارِ أهلُ الكفرِ والإلحاد، وتحكّمَ في تلك الأستارِ أهلُ الزّيْغ والعناد، فأصبحت تلك القصورُ كالمحوِ من السّطور، وأمست تلك الأوطانُ مأوَى للأصداءِ والغِرْبان، يتجاوبُ في نواحيها البوم».

في هذه الرسالة يرسمُ ياقوتُ صورةً واضحةً لما كان يُلقيهِ التتارُ في قلوبِ الناسِ من الرعبِ والفزعِ، ثم ما حلَّ بخراسانِ من التخريبِ والتدمير، ثم ما تعرَّضَ له هو نفسُه من الأخطارِ التي كانت تلاحقُه حتى وصل إلى مدينةِ (الموصل).

ومن الواضحِ أن هذه الرسالةَ فيها ما يثبتُ أن ياقوتَ برغمِ ما أحاطَ به من أخطَار، لم ينسَ صفتَه كعالمِ جغرافي، فهو يهتمُّ بتسجيلِ البلادِ الإسلامية التي يمرُّ بها ووصفِها، قبلَ أن يصلَها التتار، وما كانت تنعمُ به من رخاءٍ واستقرارٍ وخيرات، ثم ما أحدثَه التتار فيها من تخريبٍ وقتلٍ وسفكِ دماء. ويسجلُ أسفَه الشديدَ على تفككِ أوصالِ الدولةِ الإسلاميةِ العربية، وانهيارِها الشنيع أمامَ تلك الجيوشِ البربرية، وحزنَه الشديدَ على تركِه مدينةَ (مرو) الزاهرةَ العامرةَ بمكتباتِها. وهو يصفُ في رسالتِه حبَّه لهذه الكتبِ والمراجعِ التي أنسته الأهلَ والأحبابَ والوطنَ والأصحاب.

إنجازُ العمل الكبير

عندما وصلَ ردُّ الوزيرِ على رسالتِه، أسرعَ ياقوتُ فسافرَ إلى

حلب، حيث وجدَ في عطفِ الوزيرِ الفيلسوفِ القِفْطيِّ ما ساعدَه على تحسينِ أحوالِه وتيسيرِ معيشتِه. . وما إن أحسَّ بالاستقرارِ والأمانِ حتى راحَ يعملُ بجدٍّ واجتهادٍ في إعادةِ جمعِ المادةِ العلميةِ التي سيعتمدُ عليها في كتابِه مرجعِه الجغرافي. مستعيناً ببعضِ المذكِّراتِ التي بقيت معه بعد فِرارِه الطويل، وبذاكرتِه وما وَعته من خِبْراتٍ في رحلاتِه التي قام بها قبل ذلك.

استمرَّ ياقوتُ يعملُ في جدٍّ ونشاط، مصمماً على الانتهاءِ من ذلك المعجمِ في أقربِ وقتٍ ممكن، منتهزاً الفرصةَ السانحة، متخوفاً مما قد تأتِي به الأيام. وهكذا استطاعَ في عام ١٢٢٤ م (٦٢١ هـ)، أن ينتهيَ من المُسَوَّدةِ الأولى للمعجم. وعلى سبيلِ الاعترافِ بالفضل، ورغبةً في كسبِ رضا الوزير، رفعَ ياقوتُ الكتابَ إلى الوزير، باعتبارِ أن الكتاب هو ثمرةُ عطفِ الوزيرِ ورعايتِه لياقوت.

بدأ ياقوتُ كتابَه بمقدمةٍ طويلة، تتحدثُ عن أسبابِ وضعِ الكتابِ، والغرضِ منه، وفيها يُلقِي الضوءَ على منهجه العلميّ وطريقتِهِ في البحث. ثم يحددُ ياقوتُ موضوعَ كتابِه فيقول: «أما بعدُ فهذا كتابٌ في أسماءِ البلدانِ والجبالِ والأوديةِ والقيعانِ والقُرى والمحالِّ والأوطان والبحارِ والأنهارِ والغُدْران، والأصنام والأبدادِ والأوثان»، ثم يوضحُ ياقوتُ دوافعَه لوضعِ هذا المعجم قائلاً: «لم أَقصِدْ بتأليفِه وأصمِدْ لتصنيفِه، لهواً ولا لَعِباً، ولا رغبةً حثَّتني إليه ولا رَهباً، ولا حنيناً استفزَّني إلى وطن، ولا طرباً حَفَزني إلى ذِي وُدٍّ وسَكَن، ولكن رأيت التصدِّي له واجباً، والانتدابَ له مع

المقدرةِ عليه فَرْضاً لازباً، أوقفني عليه العزيزُ الكريم».

ثم يتحدثُ ياقوتُ بعدَ ذلك عن أهميةِ علمِ الجغرافيا في الحياة، وكيف أنه ضرورةٌ للناسِ على اختلافِ درجاتِهم، ويعرضُ ياقوتُ منهجَه في البحثِ الجغرافي، وما يلتزِمُهُ من أمانةٍ ودقة، لا يتعرضُ إلى معلومةٍ ما إلاَّ إذا سلّطَ عليها أشعةً قويةً من الفحصِ الدقيقِ تكشفُها وتوضّحُها، وتزيلُ ما يُحِيطُ بها من غُموض. فياقوتُ يأخذ على غيرِه ممن سبقوه، إهمالَهم لعلومِ الجغرافيا، فيشيرُ إلى التحريفِ في أسماءِ البُلدان والأماكنِ الذي يردُ في كثيرٍ من الكتبِ المهمةِ وفي المراجعِ القيّمة.

ثم يتحدث ياقوتُ عن أهميةِ العلومِ الجغرافية في الحياةِ الدينية، فهي شديدةُ الارتباط بأحكامِ الفقهِ الإسلامي والفتاوَى الدينية. كما يشيرُ إلى حاجةِ الأطباءِ والحكماءِ والمنجِّمين إلى علوم الجغرافيا، ولا ينسى ضرورتَها لأهلِ الأدبِ أيضاً.

وعندما يتحدثُ ياقوتُ عن منهجِه في التأليف، وبخاصةٍ في هذا المعجم، يشيرُ إلى القواعدِ التي التزمَها في ذلك، وهي تتضمّن:

- تصحيحَ ما اخْتَلَفَ عليه العلماء من قبل، وإضافةَ أسماءِ البلادِ الجديدة.

- ترتيبَ أسماءِ البلادِ بحسَبِ الحروفِ الأبجدية، لمساعدةِ الباحثِ على الوصولِ إلى ما يسعى إليه.

- العنايةَ بضبطِ نُطق أسماءِ البلادِ على الوجهِ الصحيح.

ـ توضيحَ المعلوماتِ الفلكيةِ المتصلةِ بكلِّ بلدٍ من البلاد.

ـ ذِكْرَ تاريخِ نشأةِ كلِّ بلد، والمسافاتِ التي بينها وبين غيرها من المدن، وخصائصِ كل بلد، وما اشتُهرت به، وأهمَّ من عاشوا في البلدِ ومن دُفنوا فيها.

ـ تسجيلَ الوقتِ الذي فتحَ فيه المسلمون المدينة، وكيف تم هذا الفتح. ثم الحديثَ عن الحكامِ الحاليين لهذه المدينة.

ثم يتحدثُ ياقوتُ بعد ذلك عن التخطيطِ الذي يلتزمُه في وضعِ معجمِه، وتقسيمِ المعجمِ إلى أبوابٍ وفصول، حتى يكونَ القارىءُ واعياً بتسلسلِ الموضوعات، وحتى يَسهُلَ عليه العثورُ على موضع الحديث الذي يَهُمُّه.

نهايةُ الرِحلة

بعد أن انتهى ياقوتُ الحموي من وضعِ المُسوَّدةِ الأولى لمعجمِه، سافرَ إلى دمشقَ وأقامَ بها بعضَ الوقت، وتعرفَ على الكثيرِ من أهلِها، وسعى إلى التجولِ في نواحيها، حريصاً في هذا كلِّه على تجميعِ المزيدِ من المعارفِ والمعلومات.

وبينما كان ذاتَ يومٍ يجلسُ في أحدِ أسواقِ دمشقَ مع بعضِ من أهلها، من أصحابِ مذهب الشيعة، تطرق الحديث إلى مذهبِهم. والشيعةُ هم طائفةٌ من المسلمين ترى حصرَ خلافةِ المسلمين في سلالةِ النّبيِّ وعائلتِه، وترى أن سيِّدَنا «عليَّ بنَ أبي طالب» أحقُّ بالخلافةِ هو وسلالتُه ممن تولَّوا خلافةَ المسلمين. ويستدلون على ذلك بأنَّ «النبيّ صلى الله عليه وسلم»، قد أوصى

بالخلافةِ «للإمام علي»، والامامُ في رأيِهم معصوم، لا تَحِلُّ مخالفتُه، ولا يجوزُ عزلُه.

بدأ ياقوت يناقشُ أصحابَ المذهبِ في سوقِ دمشق، ويهاجمُ عقيدتَهم ويعددُ الأدلةِ والبراهينَ على بُطْلانِها. اندفعَ ياقوتُ في حديثِه، فتعرَّضَ لشخصِ سيدِنا علي بما لا يرضون عنه، فَسَخِطوا عليه سَخطاً شديداً، وثارُوا ثورةً كبيرة، وهمَّ بعضُهم بقتلِه، لولا أنه أسرعَ بالفرَارِ من دمشقَ عائداً إلى حَلَب.

استقرَّ ياقوت بحلبَ بعضَ الوقت، منشغلاً بمعجمِه، يراجعُ بعضَ ما وردَ من معلومات، ويبحثُ في المكتباتِ عن معلوماتٍ جديدةٍ يضيفُها إلى المعجم. لكنْ ما لبثَ أن عاودَه حنينُه إلى السفرِ والتَّرْحال. ولكن إلى أين هذه المرة...

لم يكن من الممكنِ أن يتجهَ شرقاً حيث خطرُ التتار، وزحفُهم المتصلُ نحوَ الغرب، فلا بد له أن يسعَى غرباً. فسافرَ إلى فلسطين، ومرَّ ببلادِها وتعرَّفَ على عاداتِ أهلِها، ودوَّن مذكراتِه عنها. ثم إلى مصرَ وتجوَّلَ فيها، واستطلعَ مُدنَها، وتعرفَ على طبيعتها، وواظبَ على مكتباتِها، يبحث في هذه المكتباتِ عن جديدٍ لم يكن قد اطَّلعَ عليه من قبل.

في أولِ يناير (كانون الثاني) عام ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ)، عاد ياقوت الحمويُّ إلى حلب، المدينةِ التي اتخذَها وطناً له. وانهمك في تهذيبِ «معجم البلدان»، ليضعَه في صورتِه النهائية. وقبل أن ينتهيَ من مهمتِه هذه، عاجَلتْه الوفاةُ في ٢٠ أغسطس (آب) عام ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ)، في فندقٍ صغيرٍ وهو لم يتجاوز الخمسين من

عمرِه. وكان قد تبرعَ بمكتبتِه الكبيرةِ لمسجدٍ ببغداد. وقامَ بتنفيذِ وصيتِه هذه، المؤرخُ العربيُّ الشهيرُ ابنُ الأثير.

وهكذا، انتهت حياةُ العالمِ العربيِّ وهو في أوجِ شبابِه، ذلك الذي وصفَه المستشرقُ الروسيُّ الكبيرُ (كراتشوفسكي)، بأنه الجغرافيُّ العربيُّ الوحيدُ الذي ظهرَ في النصفِ الأولِ من القرن الثالثَ عشرَ الميلادي، وحاولَ محاولةً جادَّةً وضعَ مرجعٍ كبير، يجمعُ ما تفرقَ من المادةِ الجغرافيةِ المعروفةِ في عصرِه، وفي وقتٍ كادت فيه هذه المادةُ وغيرُها من موادِّ التراثِ العربيِّ الإسلامي أن تَضيع، في طُوفَانٍ من الفتنِ المتلاحقةِ المصائبِ المتتابعة، التي بدأت تجتاحُ العالمَ الإسلاميَّ كلَّه، بسببِ الغزوِ التَّتريِّ المخرِّب والمدمرِ لكلِّ مظاهرِ الحضارةِ والمدنية. وقد كان هذا المعجم، بالصورةِ التي رسمها ياقوت، ومن واقعِ المادةِ العلميةِ التي جمعَها فيه، ممثِّلاً بكلِّ دقةٍ لآخرِ انعكاسٍ للوحدةِ الإسلاميةِ التي كانت قائمةً في عصورِ ازدهارِ الدولةِ الإسلامية.

انجازاته

يُعتبرُ ياقوت الحمويّ، أحدَ أعلامِ الجغرافيين المسلمين، الذين صَنَعوا ببحوثِهم الجغرافيةِ، سواءٌ في الجغرافيا الوصْفيّةِ أو الطبيعيّةِ أو الفلكية، حَلَقاتٍ مترابطةً من سلسلةِ تاريخِ الأدبِ الجغرافيّ العربي، والحضارةِ العربيةِ الإسلامية.

وقد كان ياقوت الحمويُّ من علماءِ العربِ الذين جَمَعوا معارفَ كثيرة، فقد جَمَعَ بين الجغرافيا والأدبِ وعلومِ الشريعةِ واللغةِ العربيةِ وغيرِها، لكنَّ شهرتَه كانت بارزةً في علومِ الجغرافيا.

وأبرزُ دليلٍ على هذا، ما قامَ به ياقوتُ من جُهدٍ في التأليفِ يَظْهرُ في كتبِه «معجمُ البلدان» و«معجمُ الأدباء»، و«المشتركُ وَضْعاً المختلف صَقعاً»، وكتابُه في التاريخِ «المبدأُ والمال»، وكتابُ «الدّول»، ثم كتاب «أخبار المتنبّي»، والكتابُ الذي يذكُرُ فيه أنسابَ العربِ وعنوانُه «المقتضبُ في النَّسب».

ومع هذا فياقوت لم يشتهرْ إلا بمعجميه العظيمين «معجمِ البلدان»، و«معجمِ الأدباء»، لأنّهما موسوعتان من الموسوعاتِ التي طارت شهرتُها شرقاً وغرباً، لِمَا حَفِلا به من ألوانِ الثقافاتِ الجغرافيةِ والدينيةِ والأدبيةِ والتاريخيةِ واللغوية.

معجم البلدان

يقولُ «كراتشوفسكي» العالـمُ المستشرقُ إن ياقوتاً وضعَ كتابين، قبلَ أن يؤلفَ معجمَه الكبيرَ «معجمَ البلدان»، إلا أن قيمتَهما قد هَبَطت بعدَ ظهورِ المعجم.

ولا شك في أن معجمَ البلدانِ في الوقتِ الذي أُلّفَ فيه كان من أفضلِ المصنَّفاتِ الجغرافيةِ التي قام بها مؤلّفٌ عربيّ في العصورِ الوُسطى. ومن الأدلةِ على ضخامةِ هذا العملِ الجليل، أن ذلك المعجمَ يتألفُ من ثلاثةِ آلافٍ وثمانمائة وأربعٍ وتسعين صفحة، وتتناولُ هذه الصفحاتُ مادةً علميةً جغرافية، في صُوَرِها الفلكيةِ والوصفيةِ واللغوية. كما يتعرضُ فيها للجغرافيا التاريخية، وما يتصلُ بها من دِينٍ وحضارةٍ وأجناسٍ وفضائلَ بشريةٍ وأدبٍ وفنٍ.

في هذه الصورةِ التي جَمَعها ياقوت، وأنفقَ في سبيلِ جمعِها الكثيرَ من الجهدِ والوقت، خلاصةُ المعلوماتِ الجغرافية التي وصلَ إليها العربُ والمسلمون في مدَى القرونِ الستةِ الأولى للهجرةِ وما قبلَها، ذلك بالإضافةِ إلى طائفةٍ كبيرةٍ من النصوصِ الأدبيةِ

والشواهدِ الشعريةِ التي تَقْربُ من خمسةِ آلافِ بيت.

وقد بدأ المستشرقون في أوروبا يتعرّفون على ياقوت، ويقومون بدراساتٍ حوله، منذ القرنِ التاسعَ عَشَر. وكانت المخطوطاتُ التي تحملُ آثارَه العلميةَ قد تسرَّبت من الشرقِ إلى المكتباتِ الأوروبيةِ المعنيةِ بالتراثِ الشرقي، وبخاصةٍ التراثَ العربيُّ الإسلامي. ومن العلماءِ المستشرقين الذين اعْتَنَوْا بدراسةِ ياقوت، العالمُ راسموسن والعالمُ فرين. وكان فرين هو أولُ من كتبَ عن شخصيةِ ياقوت وعرَّفَ به، غيرَ أن النصَّ الكاملَ لمعجمِ البلدانِ ظلَّ مخبوءاً لم يرَ النورَ إلا في سنةِ ١٨٦٠ ميلادية.

ومن علماءِ الاستشراق الذين قَدَرُوا جهودَ ياقوت، العالمُ سنكوفسكي، فقد وصفَ ياقوتاً بالدقةِ والاجتهاد، واعترفَ بأنَّ علمَ الاستشراقِ مدينٌ له، لأنَّ ياقوتاً في معجمِه حَفِظَ وسجلَ بكل دقةٍ آثاراً قيمةً في جغرافيةِ وتاريخِ العصورِ الوسطى.

معجمُ الأدباء

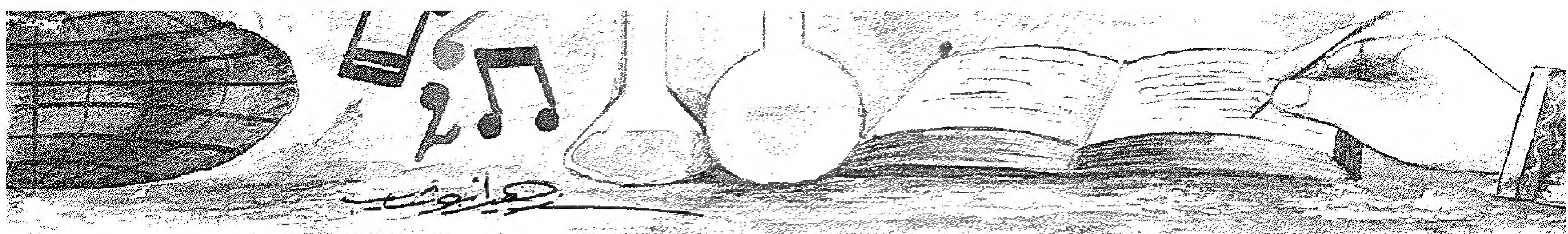
وهو المعجمُ الثاني الذي أذاعَ صيتَ ياقوت الحمويّ، ورفعَ من مكانتِهِ في تاريخِ العلماءِ العرب. وفي هذا المعجمِ يجدُ القارىءُ صورةً دقيقةً لحركةِ العلمِ واللغةِ والأدبِ في الأمةِ الإسلاميةِ على مدى ستةِ قرونٍ تقريباً. ففيه تراجمُ اللغويين والأدباءِ والنُّحاةِ والشعراءِ وغيرِهم من كلِّ فنٍّ وعلم. كما تجدُ فيه إشاراتٍ وملخصاتٍ لما أَلَّفَه المؤلفون في كلِّ عصر، وفي كلِّ علمٍ من العلومِ الأدبيةِ والشرعيةِ والاجتماعيةِ والطبيعية.

وكان معجمُ الأدباءِ قبلَ أن تتكاملَ أجزاؤُه، يقعُ في مجلداتٍ متفرقةٍ في مكتباتِ أوروبا والآستانة، حتى نَشِطَ العالمُ المستشرق الانجليزي مرجليوث للاشتغالِ بجمعِ شتاتِ هذا المرجعِ الكبير، والعملِ على طبعِه كاملاً.

ويعتبرُ معجمُ الأدباءِ دليلاً على سعَةِ اطلاعِ ياقوت الحموي في النواحي الأدبية، وفي فنِّ التراجمِ والسِّيَرِ الشخصية. وطريقةُ تأليفِ ذلك المعجم، تؤكدُ أن ياقوتاً كان خبيراً بتأليفِ الموسوعاتِ الأدبية.

وعن «معجمِ الأدباء»، يقول الأستاذ جوستاف جرونيباوم في كتابِه (حضارة الإسلام): أمّا كتابُ ياقوت المتوفى سنة ١٢٢٩ م «معجمُ الأدباء»، فهو وثيقةٌ تدلُّ على سعةِ اطلاعٍ هائلة، وهو أحسنُ من «الأغاني» نظاماً وتنسيقاً للحقائق، وشخصُ العالِمِ يكادُ يكونُ في كلِّ موضعٍ من الكتابِ تقريباً، مختفياً وراءَ تحصيلِه الثقافي.

الفهرست

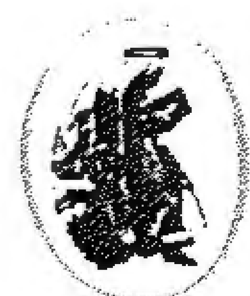


علماء العرب

تتناولُ هذه السلسلةُ، بأسلوبٍ مُشوّق، وعبارةٍ واضحةٍ، حياةَ ستةَ عشرَ عالماً من مشاهيرِ علماءِ العرب الذين ساهموا في تقدّمِ الحضارةِ، وفتحِ آفاقٍ جديدةٍ في العلمِ والمعرفةِ أمامَ الإنسانيّةِ.

السلسلةُ، باختصارٍ، غايةٌ في الأهميّةِ، لأنها تُقدّمُ للجيلِ العربيِّ الجديدِ الوجهَ الأصيلَ من تراثِ العربِ الذي أفادَ منه العالمُ أجمع، وأثنى عليه الغربُ قبلَ العربِ أنفسِهم.





المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١

العنوان البرقي: موكيالي هـ ١/ ٨٠٧٩٠٠

تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الغلاف: زهير أبو شايب